إحسان عبد القدوس

اللون الآخر

١

سأبدأ الحكاية من أولها ..

إنى أحب ميرفت ابنة أخى وأعتز بها كأنها ابنتى .. وحبى يشوبه إحساس عجيب .. فإنى أفرح بها وأحس بمتعة حلوة لمجرد رؤيتها .. أضعها فى خيالى كأنها أجمل بنت من البنات .. ربما لأنها صورة كاملة من أمها .. بيضاء ناصعة كنور الشمس .. لا .. إن نور الشمس زاعق حارق .. إنها كنور القمر .. لا أيضا .. إن نور القمر نور ضائع تائه فى ظلام الليل .. إن بياضها فى لون الوردة البيضاء المشرب بحمرة النضوج .. وشعرها أصفر ليس زاعق الاصفرار ولكنه لون أصفر هادىء مضمخ بلون غامق كأنه يتعمد ألا يكون فى لون الذهب لأنه أغلى من الذهب .. إنه الجمال الذى سحرنى فى أمها أيام شبابى حتى أنى كنت أتمنى أن أتزوجها لولا أن أخى مدحت سبقنى إليها .. وإن كنت قد وجدت نفسى بعدها غارقا فى حب فتاة سمراء شعرها داكن السواد .. حب زوجتى سعاد .. يبدو أن الحب لا يجمع بين اثنين اعتمادا على نسبة الجمال أو على اللون .. أبيض وأسمر وأسود .. ولكنه يعتمد على تكامل الشخصيتين .. وقد تكاملت

شخصيتى مع شخصية زوجتى سعاد رغم أنى كنت أعيش منبهرا بجمال وبياض نيفين زوجة أخى مدحت وأم حبيبتى الصغيرة ميرفت ..

وقد استطعت أن أكسب حب ميرفت ربما منذ ولدت ولذلك كانت متعلقة بى دائما ويزداد تعلقها كلما كبرت بعكس أختها الصغرى نرمين فاحساسها بى لا يتعدى أنى عمها .. وربما كنت أنا أيضا لا يتعدى إحساسى بها أنها ابنة أخى .. وفى أنى أشعر أن ميرفت تحس بى كأب وأنا أحس بها كابنة .. ربما لأن نرمين صورة من أبيها .. سمراء وشعرها الناعم أسود غامق .. ليست بيضاء شقراء كأمها .. وليس معنى ذلك أن نرمين ليست جميلة .. إنها حلوة جذابة خفيفة الدم ..

وكان مدحت أخى يعامل ابنتيه وزوجته أيضا باطلاق كل الحرية لهن واثقا من أنه استطاع أن يبذر فى شخصياتهن المبادىء الخلقية القويمة وأن يجعل من كل منهن شخصية تعتز بنفسها وتحترم نفسها فلا يمكن أن تخطىء لا فى حق نفسها ولا فى حق أبيها أو عائلتها .. وكانت هذه الحرية تحرر العائلة كلها من الأسرار .. ليس هناك سر يخفيه أحدهم عن الآخر .. فكل بنت تقول لأمها كل ما يجرى فى حياتها ، وتقوله أيضا لأبيها .. وإن كان هناك دائما نوع من التفاصيل .. تفاصيل الحياة .. تستطيع البنت أن تصارح به أمها ولا تستطيع أن تصارح به أباها ..

ورغم ذلك فقد كنت أشعر أن ميرفت تطمئن إلى مصارحتى أكثر مما تطمئن إلى مصارحة أبيها .. كانت تتحدث إلى كأننا

أصدقاء .. أو ربما كانت تحس بى كأستاذ أو عالم نفسانى تلجأ إليه لتمد عينيها فى أسرار الحياة إلى أبعد مما تراه .. وميرفت ليست شخصية سهلة .. إنى أحس بها أحيانا كأنها حائرة .. ليست حائرة فى شىء ما ولكنها حائرة مع نفسها .. وربما كان سر حيرتها أنها تعرف أنها حلوة .. جميلة .. هذا الجمال الأشقر الذى يعتبر بيننا جمالا نادرا .. وهى لا تدرى ماذا تفعل بهذا الجمال .. وكانت عندما تتحدث إلى عن احساسها بهذا الجمال الذى تتميز به تشكو منه وتتمنى لو كانت كأختها نرمين سمراء حتى لا تتعرض لهذه النظرة الخاصة التى يواجهها بها الشبان ، وهذه الملاحقة التى يسلطونها عليها دون أن تطمئن إلى أن أحدا منهم تجذبه شخصيتها أو ذكاؤها إنما كل ما يجذبه إنها .. بيضاء .. شقراء.. ولكن .. ربما كانت فى حيرة ميرفت سر آخر لم أكتشفه إلا بعد أن كبرت قليلا وأصبحت شابة ..

وكان من بين الحريات التى منحها أخى لابنتيه هو حق كل بنت فى دعوة أصدقائها الشبان إلى البيت .. أصدقائهما فى الحى عندما كانتا صغيرتين ، ثم أصدقائهما فى المدارس المختلطة بعد أن التحقتا بها ، ثم أصدقائهما فى الجامعة .. وكان أخى مقتنعا أن علاقات ابنتيه بالشبان ما دامت تتم داخل العائلة وفى رعاية العائلة ، فهى دائما علاقات نظيفة شريفة لا يمكن أن تصل بأى منهما إلى الخطيئة .. إن الخطيئة لا تقع إلا فى الخفاء وفى المكان المختبىء المجهول ، وهو يحمى ابنتيه من الخفاء ومن الاختباء ومن المجهول .. وليس معنى ذلك أن

كل بنت كانت تقدم إلى عائلتها عشرات الشبان ولكن كلا منهما لم تكن تدعو إلى البيت إلا الصديق الذى تحس بأنها مطمئنة إليه وإلى أن صداقته وصلت إلى حد أن تقدمه إلى العائلة .

وكان لنرمين صديق واحد هو الذى قدمته إلى العائلة .. أى عائلة أخى وعائلتى .. حتى أصبحنا مقتنعين بأن المستقبل سيجمعهما إلى الأبد .. وكلنا مطمئنون لأننا عرفنا هذا الشاب معرفة كاملة وعرفنا عائلته وأصبح الآباء والأمهات يتزاورون.. زيارات لا تتصارح إلا بالود والصداقة وفى انتظار التصارح بالخطوبة والزواج .. أما ميرفت فقد أدخلت علينا أكثر من صديق .. وقبل أن نطمئن إلى هذا الصديق يكون قد اختفى .. وتمر شهور طويلة ثم تعود وتقدم لنا صديقا آخر .. ثم يختفى.. وقد سألتها مرة عن سر تعدد أصدقائها وعدم الإبقاء على صداقة أى منهم .. فقالت وهى تهز كتفيها بلا مبالاة :

– لم أسترح لأى واحد منهم ..

وقلت وأنا أدعى الدهشة :

– لمـــاذا ؟

وقالت وهى تزفر فى ضيق :

– كلهم يبحثون عن الشكل .. ولم أجد من يبحث عن العقل.. وكنت أجرب وانتظر طويلا إلى أن أيأس .. كل منهم لا يرى فىّ إلا أنى حلوة ويعجبه شكلى ..

وقلت ضاحكا :

– ليس ذنبك ولا ذنبه أنك حلوة ..

وكان ما لاحظته وأنا أحاول اكتشاف ذوق ميرفت فى

اختيار أصدقائها أن كلهم سمر الوجوه كما أن كلهم يتميزون بنوع من الخشونة كما أن كلهم من الطبقة العادية .. ليس فيهم من يعتبر من الطبقة الراقية .. حتى من الطبقة الراقية الجديدة.. بل إنه كان من بينهم ثلاثة شبان من الريف يتلقون العلم فى القاهرة .. فلاحون .. وكنت أدهش لذوق ميرفت فى اختيار أصدقائها .. إنها وهى تحس بأنها جميلة هذا النوع النادر بيننا من الجمال كان يجب أن تبحث عن صديق يحقق لها أمل التباهى بجمالها فى وسط المجتمعات العالية الراقية ..

وكبرت ميرفت .. أصبحت فى السابعة عشرة .. وكانت العائلتان .. عائلتى وعائلة أخى .. تقضيان الصيف فى الاسكندرية .. وكنا نقضى أيامنا على شاطىء المنتزة .. وكان يقام صباح كل يوم جمعة وكل يوم أحد تحت أشجار حدائق المنتزة ملهى للرقص الأفرنجى كل من يرقصون فيه من الشبان والشابات .. الجيل الجديد .. وكنت أقوم كل صباح بأداء رياضتى اليومية وهى السير على قدمى فى خطوات سريعة طائفا بحدائق المنتزة من أولها إلى آخرها .. ومررت دون تعمد بهذا الملهى والبنات والأولاد يرقصون بين الأشجار.. ووقفت مذهولا .. إن ميرفت ترقص .. وهى ترقص مع شاب أسود غطيس .. لا شك أنه يرقص رقصا رائعا ويقوم بحركات رشيقة من هذه الحركات التى دخلت إلى الرقص الحديث .. وميرفت أيضا .. لم أكن اتصور أنها تستطيع أن ترقص بهذه الرشاقة والخفة والروعة .. وهما فى رقصهما متباعدان .. كل منهما لا يلمس الأخر .. إن الرقص الحديث أكثر

تباعدا عن متعة الاحساس باللمس .. إنه مجرد حركات رشيقة كأنها حركات رياضية .. بعكس الرقصات القديمة .. إنها رقصات تعطى اللمس الكامل بين جسدى الفتى والفتاة حتى ترفرف الخطيئة عليهما وهما يرقصان .. وقد كنت أنا فى شبابى أفضل التانجو لأنها تعطينى حقا أكبر فى التمتع بضم الجسد إلى الجسد .. إن الجيل الجديد يرتفع ويرقى عن الأحاسيس الجسدية ويكتفى باحساسه بالرقص والموسيقى ..

ووقفت أتابع ميرفت وهى ترقص وأنا أتعمد إخفاء نفسى حتى لا ترانى وكأنى أتجسس عليها .. ولم يعد ما يشغلنى هو متابعة حركاتها الراقصة ، ولكن أصبح ما يشغلنى هو التساؤل عن سر اختيارها لترقص مع هذا الشاب الأسود الغامق .. لا شك أنها تحس الضعف ناحية اللون الأسود .. إنه اللون الذى يتوازن مع لونها الأبيض الأشقر .. وتذكرت وأنا سارح أياما قضيتها فى باريس ومنذ أكثر من ثلاثين سنة .. وضحكت .. ضحكت على نفسى لقد كنت أول مرة أسافر إلى أوربا وأدخل باريس .. وكنت فى باكورة شبابى .. وفى الخامسة والعشرين من عمرى . وكنت كأى شاب يذهب إلى باريس أمنى النفس بأيام رائعة مزدحمة بالمغامرات .. وتعمدت أن أقيم فى الحى اللاتينى إلا أنه حى الطلبة والعباقرة وتنطلق بين شوارعه الآراء الحرة حتى آخرها .. وكل شىء مباح فى الحى اللاتينى .. وكنت واثقا أن طابعى الشرقى الأفريقى سيجذب إلىّ كل بنات فرنسا .. السمار والشعر الأسود وقوامى الطويل .. لا شك أنى سأكون جذابا فى باريس ..

وكنت وأنا شارد فى هذه الخيالات أتجاهل طبيعتى .. وهى طبيعة تجعلنى على حياء بأن أبدأ بالتقدم إلى أى فتاة أو مغازلتها .. وكنت أقنع نفسى بأنى « واد تقيل » ولكن الواقع أنى « واد خجول » لا يمكن أن أحاول مع أى امرأة إلا إذا بدأت هى وسمحت لى بالمحاولة .. وربما لهذا أحببت سعاد وتزوجتها لأنها بدأت بأن سمحت لى بأن أحبها ..

وكنت وأنا فى باريس أجلس كل يوم على مقهى صغير على ناصية أحد شوارع الحى اللاتينى .. وجاءت فتاة وجلست إلى المائدة المجاورة .. إنها رائعة .. بيضاء .. شقراء .. وأنا أضعف أمام أول نظرة لفتاة بيضاء شقراء .. ومضت فترة طويلة وأنا اختلس إليها النظرات .. أتمنى ولا أدرى كيف أبدأ .. وقاومت طبيعتى حتى استطعت فى لحظة لقاء عيوننا أن أبتسم لها .. وفرحت .. لقد ردت علىّ وابتسمت لى .. ولكنى عدت أتردد تحت ثقل خجلى وخوفى من أن ترفضنى .. ولكنى استطعت أن أبتسم لها ابتسامة ثانية وردت بابتسامتها .. واطمأننت .. إنها تعطينى الإذن بأن أبدأ معها .. لا تكن عبيطا خائبا يا واد وابدأ .. وقلت لها من بعيد بالكلمات الفرنسية التى أعرفها :

– هل أستطيع أن أدعوك إلى مائدتى ..

وقالت فى صوت كرنين الذهب :

– تعال أنت ..

وضغط على أصابعى حتى أتغلب على ترددى وقمت وجلست بجانبها وأنا التهمها بكل عينى .. وفى لحظات اشتركنا فى حديث لا ينتهى وكأننا أصدقاء قدامى .. ورغم

ضعف لغتى الفرنسية إلا أنى كنت أفهم كل ما تقوله ، وأستطيع أن أتكلم بفرنسية تفهم منها كل ما أقول .. وإن كانت تقاطعنى أحيانا بضحكة لغرابة الكلمات والتعبيرات التى أبتكرها فى اللغة الفرنسية .. وكل ما لاحظته أنها تنقل عينيها كثيرا إلى أنحاء الشارع كأنها تبحث عن أحد أو فى انتظار أحد.. ثم فجأة أطلت فى الساعة التى تحيط بمعصمها وقامت واقفة قائلة من خلال ابتسامتها :

– عن أذنك .. يجب أن أذهب .

قلت فى حسرة :

– ومتى أستطيع أن أراك ..

وقالت بسرعة :

– إنى أتردد دائما على هذا المقهى ..

ثم ابتعدت دون أن تقرئنى السلام بل دون أن تمنحنى ابتسامة أخرى .. لعلها ابتعدت بلا تكلف كعادة الأصدقاء ..

وقضيت ليلى وأنا هائم فيها .. هائم فى شعرها الأشقر ولونها الأبيض المضمخ بإحمرار الورد .. وعينيها الملونتين اللتين يختلط فيهما الأخضر بالأزرق .. ونهديها المنطلقين فوق صدرها كأنهما يحاولان تمزيق ثوبها ليصلا إليك ..

وفى اليوم التالى ذهبت إلى المقهى فى نفس الموعد وفوجئت بأنها سبقتنى إلى هناك .. ودون أن تدعونى جلست إليها وهى تستقبلنى بابتسامتها الحلوة .. وبدأنا ننطلق فى الحديث .. وهى كما كانت بالأمس تتلفت حولها بين الحين والحين .. ثم فجأة قفزت من فوق مقعدها وهى تصيح تهتف باسم أحد الناس :

– ماكى .

ثم تعلقت فى وسط الشارع بشاب أسود غامق أفطس الأنف .. مدلى الشفتين .. طويل القامة .. ورأيتها تقبله ثم تضع ذراعها فى ذراعه ويسيران بعيدا عنى دون أن تودعنى ولو من بعيد بكلمة أو بإشارة ..

وصدمت بخيبة أمل عذبتنى أياما .. وقد بدأت ألاحظ فى باريس أن كل زنجى يسير وقد تعلقت فى ذراعه فتاة بيضاء شقراء .. إنهم شبان من دول غرب افريقيا التى تستعمرها فرنسا .. وقد أصبحت كلما سافرت إلى الخارج أتعمد ملاحظة العلاقة بين البيض والسود .. فى لندن أيضا يستولى الشبان السود على الفتيات الشقراوات .. بل وفى أمريكا رغم ما عرف عنها من حدة التفرقة العنصرية يجتمع اللون الأسود مع اللون الأبيض .. وقد كنت فى نيويورك وذهبت إلى حى « الفيليدج » الذى أشتهر بملاهيه فوجدت المقاهى والشوارع مزدحمة بالشبان السود وفى ذراع كل منهم فتاة شقراء كأنها سوار يلفه حول يده ويتجمل به .. وإن كان العكس ليس منتشرا كل هذا الانتشار .. أى ليس كثيرا ما كنت أرى شابا أبيض يعلق فى ذراعه فتاة سوداء ..

وقد قيل أن ما يدفع الفتاة البيضاء إلى التعلق بالشاب الأسود هو ما يتميز به من قوة جنسية .. فالشاب الأسود لا يزال على فطرته ولا يعانى من مشاكل العمل ومشاكل الحياة مما يضعف طبيعته الجنسية كما يحدث للرجل الأبيض.. ولكن كل هذا ليس صحيحا فى رأيى .. إن ما يجمع بين

الأبيض والأسود مجرد حاسة لاستكمال اللون .. حاسة قائمة على الذوق الفنى فى التجمل .. فالفتاة البيضاء تتعمد اختيار ثوبها من اللون الغامق حتى تخفف من حدة انطلاق لونها الأبيض فيصبح لونها أهدأ وأجمل .. والفتاة السوداء أو الغامقة اللون تختار ثوبا أبيض أو فاتحا حتى تخفف من لونها الأسود وفى نفس الوقت تبرزه وتتباهى به .. والرجل أقل اندفاعا فى استكمال اللون لأنه أقل إحساسا من المرأة بالذوق الفنى فى إبراز شكله ووسامته .. وربما كان الرجل الأسود أكثر إقبالا على البحث عن اللون الآخر من الرجل الأبيض لأنه لا يزال يعيش فى طبيعة فنية وأحاسيس شخصية أقوى وأقرب إلى الفطرة ..

وإذا كانت نزعة استكمال اللون بلون آخر منتشرة فى جميع أنحاء العالم فلا شك أنها منتشرة فى مصر أيضا .. ومعروف أن البيضاء تقبل على الأسمر حتى لو لم يكن أسود ، والأسمر يقبل على البيضاء .. أنها طبيعة بشرية .. وميرفت معذورة ، إذا كان من عادتها اختيار السمر وإذا وصلت إلى اختيار شاب أسود ..

ووقفت أتطلع إلى ميرفت وهى تراقص هذا الشاب ثم ابتعدت دون أن ترانى .. لا شك أنها ستحكى لى كل شىء عندما أنفرد بها كما تعودت ..

واجتمعنا كلنا ساعة الغداء فى الكابين المطل على البحر .. وحكى كل من البنات والأولاد كيف قضى كل منهم وقته وأين كان يلهو .. ولم تقل ميرفت أكثر من أنها ذهبت إلى الملهى

الراقص ورقصت تحت الأشجار وأشادت بالفرقة الموسيقية التى كانت تعزف .. ولم يحاول أحد أن يسألها مع من كانت ترقص .. إن المهم هو الثقة المطلقة فى البنت ولا يهم أن نعرف مع من كانت ترقص .. ولذلك تعمدت بعد الغداء أن انفرد بميرفت وقلت لها ضاحكا :

– لقد رأيتك ..

قالت فى بساطة :

– أيـــن ؟

قلت من خلال ابتسامة راقصة :

– وأنت ترقصين .. ولم أحاول أن ترينى حتى لا أفسد عليك الرقص ..

وقالت فى فرح :

– لقد كانت أكثر مرة تمتعت فيها بالرقص .. كنت أرقص مع شاب يجن فى الرقص .. بل إنى تعلمت منه حركات راقصة جديدة كانت غريبة على ..

قلت مبتسما :

– لابد أن يكون عبقريا فى الرقص .. كل الزنوج عباقرة فى الرقص ..

وقالت بسرعة دون أن تتأثر وأنا أواجهها باكتشافى :

– إنه من السنغال .. ويعمل فى السفارة السنغالية .. إنى أحس به كأنه عبقرى فعلا ..

وقلت وأنا أغمرها بحنانى :

– إنى طول عمرك وأنا أحس بضعفك أمام الشبان السمر ولعل هذا الضعف جذبك إلى اللون الأسود .

وقالت وهى تنظر إلىّ كأنها تلومنى :

– إنى لم أحس به كأسود أو أبيض .. ما أعجبنى فيه هو شخصيته .. إنه يعيش فنه وهواياته ولا يعيش التغزل والبصبصة كبقية الشبان المصريين .. لقد استجبت إليه بمجرد أن دعانى للرقص ولم أسمع منه أى كلمة إعجاب أو غزل ونحن نرقص .. ولم يحاول أن يلمسنى بحجة الرقص كما يفعل معى كل من أراقصهم حتى لو كنا نرقص روك أند رول.. ثم بعد أن رقصنا لم يقل أى كلمة .. تركنى حرة لأتكلم أنا .. وسار ناحية البار وهو ينظر إلىّ كأنه يستأذننى ولكنى سرت معه ووقفنا نتحدث .. إن كل حديثه عن الموسيقى وآخر الألحان وآخر الأغنيات .. أنه هو نفسه يعزف الجاز والسكسفون ووعدنى بأن يسمعنى عزفه .. لقد ارتحت إليه ..

وظلت ميرفت تحدثنى طويلا دون أن أشعر بأن هناك أى إحساس بهذا الشاب تخفيه عنى .. ولكنى كنت أنتظر أن تأتى ميرفت يوما وتقدم هذا الشاب إلى العائلة كما هى التقاليد .. ولكن مر الصيف ولم تقدمه إلينا .. ربما كانت تحس بالحرج أن تقدم لنا شابا غريبا مثله .. ربما خشيت أننا أو أن أباها بالذات لن يرحب به ولن يستقبله كما يستقبل كل صديق تقدمه لنا .. هل كانت تقابله بعيدا عن العائلة .. تقابله فى السر وتختبىء به .. لا أدرى .. بل لا أظن فثقتى بميرفت كاملة .. ولم أحاول أن أسألها حتى لا أزعزع هذه الثقة .. إلى أن انتهى

الصيف وعدنا إلى القاهرة .. وفى يوم سألتها وأنا أدعى البراءة :

– أين صديقك السنغالى .. لماذا لم تقدميه إلينا ..

وقالت فى بساطة ومرح :

– إنه لم يكن يأتى إلى المنتزة إلا فى أيام حفلات الرقص .. لم يكن يأتى إلىّ ولكنه كان يأتى للرقص .. وكنت أرقص معه كلما رأيته .. وفى آخر مرة قال لى أنه مضطر إلى العودة إلى بلده .. ومن يومها لم أرقص مع أحد غيره .. ولم أجد من يستحق أن أشاركه الرقص بعده ..

قلت كأنى أريد أن أطمئن أكثر :

– ألم يكتب لك بعد أن سافر ..

قالت فى حسرة :

– لا .. لم يكن بيننا ما يتطلب تبادل الخطابات .. خسارة ..

●●●

وضاعت حكاية الشاب السنغالى ..

وكانت ميرفت قد التحقت بكلية الآداب قسم اللغة الانجليزية .. ومضى العام الدراسى كله دون أن ترتبط بصداقة أى زميل من زملائها فى الجامعة .. بل أحسست كأن ميرفت تغيرت وحط عليها نوع من التعالى على كل الشباب .. لا تريد أن يكون لها واحد منهم ولا شك أنه قيل عنها بين الطلبة أنها فتاة مغرورة قنزوحة تظن نفسها أجمل فتاة فى العالم .. وكانت تبدو فى كل أحاديثها ساخطة على كل ما فى الجامعة .. لا تطيق زملاءها ولا زميلاتها ولا يعجبها أى أستاذ

من أساتذتها .. وكانت تحكى لى محاولات التقريب إليها من الطلبة وبعض الأساتذة وتقول ساخطة :

– إنى أحس كأنهم لا يريدون معرفتى ولكن كلا منهم يحاول اصطيادى .. وإذا كان كل ما بين طلبة الجامعة هو الصيد فأنا لن أسمح لأحد باصطيادى ولم أر بينهم من يغرينى باصطياده ..

بل إنها كانت تقول لى أنها تفكر فى الانتقال إلى الجامعة الأمريكية .. إنهم فى داخل الجامعة الأمريكية يعيشون طلبة وطالبات فى مجتمع واحد .. مجتمع تنطلق فيه كل نواحى الحرية ولكنه يفرض على كل فرد أن يحترم حرية الآخر ، ويحترم نفسه فى تعامله مع الآخرين .. إن هذا المجتمع الواحد فرض عليهم كلهم شخصية عامة واحدة .. الشخصية الأمريكية .. وكل فرد حر أن يختار الجانب الذى يعيشه من هذه الشخصية .. أما الجامعة المصرية فهى لا تعيش مجتمعا واحدا .. إن كل فرد فيها يبدو كأنه يعيش مجتمعا ليس مجتمع الآخرين .. ليس هناك شخصية عامة واحدة تجمع بين كل الطلبة والطالبات .. ولذلك فكل منهم يعيش وهو حائر كيف يتصرف .. وما هو ما يمكن وما لا يمكن .. وكيف يتعامل الطالب مع الطالبة .. ما هو الخطأ والصواب .. وما هو الحلال والحرام .. هل من حق الطالبة أن تسافر مع الطلبة فى الرحلات الجامعية .. هل من حقها أن تجلس مع صديقها الطالب وحدهما على أرض الحرم الجامعى .. هل من حقها أن تنضم إلى فرقة مسرحية أقامها الطلبة لتمثيل المسرحيات التى

يدرسونها فى الأدبين العربى والانجليزى .. و ... و ... إن كل تساؤل له من يؤيده وله من يعارضه إلى حد الاعتداء على من يعارضهم .. ليس فى الجامعة مجتمع واحد يعيش على أسس اجتماعية واحدة وفكر اجتماعى واحد .. ربما لأن مصر كلها لا تزال تحاول التطور والتقدم لتقيم لنفسها مجتمعا واحدا يقوم على تقاليد مصرية واحدة وأسس اجتماعية واحدة .. ويجمع بين القديم والحديث .. وبين المحلى والمستورد .. مجتمع يعترف للبنت فيه بحق الرقص الأفرنجى كما أنها ترقص الرقص البلدى المحلى ..

ورغم طول مناقشتنا أنا وميرفت فإنها لم تحاول أبدا أن تترك كلية الآداب وتلتحق بالجامعة الأمريكية ، ربما لأنها لا تريد أن تفقد متعة تباهيها بشعرها الأشقر وجمالها المتميز داخل الجامعة المصرية .. ولعلها لو ذهبت إلى الجامعة الأمريكية لكانت واحدة من بين عشرات الشقراوات ..

ولا شك أن الحياة الجامعية أثرت فى شخصية ميرفت وجعلتها أكثر غرورا بجمالها إلى حد التعالى والقنزحة وإن كانت فى الوقت نفسه بقيت حائرة لا تدرى ماذا تصنع بهذا الجمال وأدت بها الحيرة إلى نوع من الانعزال حتى عندما سافرنا فى الصيف إلى الاسكندرية كما هى عادتنا لم تحاول أن تتغلب على هذه العزلة وعلى هذه الحيرة بل قضت الصيف كله بيننا مكتفية بالتسلية مع شبان العائلة ومع صديقاتها وهى لا تنسى أبدا أنها طالبة جامعية .. تعامل صديقاتها كأنها أستاذة .

●●●

وعادت ميرفت إلى كلية الآداب فى العام الدراسى التالى ..

ولا شىء جديد ..

إلى أن بدأت بعد شهور تحدثنى عن زميل لها تعرفت به وتقول عنه أنه من خيرة الطلبة الذين فى الجامعة .. وهو يسبقها فى الدراسة ووصل إلى السنة النهائية ، ويساعدها فى فهم ودراسة المواد المقررة عليها .. وقد بدأت أيضا تتحدث مع أمها عن هذا الصديق .. وتقول اسمه كلما جاءت مناسبة تتيح لها أن تتحدث عنه .

اسمه حسن بابكر الفكى ..

وهو طالب سودانى أكمل دراسته الثانوية فى الخرطوم ثم جاء ليتم دراسته الجامعية فى القاهرة ..

وأعلنتنا ميرفت أنها دعت صديقها حسن لتقدمه إلينا ..

٣

لا أدرى كيف استقبل أخى مدحت الصديق السودانى الذى قدمته إليه ابنته .. حسن بابكر الفكى .. ولكن يبدو أنه استقبله استقبالا لم يعجب ميرفت .. فقد جاءت بصديقها لتقدمه إلىّ أيضا كعادتها ولاحظت وهى تقدمه أنها تنظر إلىّ نظرات حادة كأنها تحذرنى من أن أسىء استقباله .. أو أستقبله فى برود .. لعلها كانت تخشى أن أستقبله كما استقبله أبوها .. والواقع أنى كنت أعد نفسى لأستقبله دون أن تخالجنى أى دهشة فى أن تختار ميرفت صديقا سودانيا .. فأنا الوحيد بين أفراد العائلة الذى يؤمن منذ زمان طويل بأن ميرفت ضعيفة أمام اللون الغامق .. ولن تختار صديقا إلا إذا كان من اللون الغامق .. ولن تقع فى الحب بل قد لا تتزوج إلا شابا غامقا .. ابتداء من السمار إلى السواد .. لذلك استقبلت حسن دون أن أفاجأ به أو أدهش له ، كأنى كنت فى انتظاره هو بالذات ما دامت ميرفت هى التى اختارته .. أما زوجتى سعاد فقد استقبلته فى نفور وهى تنظر إلى ميرفت نظرات ساخطة كأنها تتهمها بالجنون .. أما ابنى ياسر فقد استقبله بترحاب كبير .. إن ياسر خريج كلية

الزراعة ولعل الصديق الجديد أثار فى خياله مشروعات زراعية على أرض السودان ..

والواقع أن مجرد أن حسن بابكر من السودان أزال الكلفة بيننا فى دقائق وبدأنا نحس به كأنه واحد منا ومن بلدنا.. وقد أعجبت به منذ اللقاء الأول .. فهو رزين .. يتكلم قليلا وكلامه دائما كلام مفيد .. ولا يقهقه ضاحكا ولكن ابتسامته دائمة بين شفتيه تكشف عن أسنانه البيضاء التى تلمع على وجهه الغامق.. ولا شك أنه وسيم حتى تنسيك وسامته فارق الألوان.

وتقاليد العائلة تسمح لكل بنت من بناتها بمجرد أن تختار صديقا وتقدمه إلى العائلة أن تدعوه كل يوم إلى البيت .. تذاكر معه أو مجرد أن تجلس معه .. حتى يصبح كأنه فرد من أفراد العائلة حتى يتم الزواج .. وهى الطريقة المثلى فى المجتمع الحديث لبناء الزواج السعيد .. ولكن حسن بابكر لم يكن يتردد على ميرفت كل يوم .. ولم يصل إلى أن يصبح فردا من أفراد عائلة أخى مدحت .. ربما لأنه شاب محافظ كما عرفته لا يستطيع أن يتطور مع التقاليد الحديثة .. وربما لأن أخى ظل يعتبره غريبا .. لا يحاول أن يرفع الكلفة معه حتى يصبح من أفراد العائلة .. كان أخى مستسلما لحرية ابنته فى اختيار أصدقائها كما عودها وثقة بها ولكنه لم يستطع الاقتناع بصداقة ميرفت لحسن .. الصداقة التى قد تنتهى بالزواج ..

ولذلك لم يكن حسن بابكر يتردد على ميرفت فى البيت كثيرا .. مرة أو مرتين فى الأسبوع .. ليذاكر معها .. ربما تحت إلحاح ميرفت .. وكان يرحب أكثر بالتردد على عائلتى أنا لأننا

ـ ما عدا زوجتى سعاد ـ نتعمد رفع الكلفة بيننا ولا نفكر فيما إذا كان سيتزوج ميرفت أو لا يتزوج .. ولكنه رغم كل ما كنا نبذله معه لم نستطع أن نخرجه عن شخصيته المتحفظة وعقليته القديمة .. إنه شخصية أخرى غير شخصية الشاب الذى كان من السنغال وكانت ميرفت تراقصه .. إنه لا يرقص..

وكانت أغلبية أفراد العائلة تنتظر اليوم الذى تنتهى فيه صداقة ميرفت وحسن .. فقد عودتهم ميرفت على ألا تبقى على صداقة .. ربما انتهت هذه الصداقة بعد أن يتخرج حسن فى الجامعة ويعود إلى بلده .. وهو سيتخرج هذا العام ..

وقد تخرج حسن فعلا وكان من أوائل الخريجين .. ونجحت ميرفت فى الامتحان وانتقلت إلى السنة الثالثة من دراستها فى كلية الآداب .. ولكن الصداقة لم تنته .. إن حسن لم يعد إلى بلده .. وزياراته وإن كانت قد تباعدت فقد كانت ميرفت تلقاه كل يوم تقريبا خارج البيت ، وهى لا تلقاه إلا بعد أن تبلغ أمها أنها ذاهبة إلى لقائه .. كما تعودت .. وأمها توافق لتصون اللقاء من السرية والاختباء كما تقضى تقاليد العائلة ..

وأمها تتمنى أن تكون لقاءات وداع إلى أن يختفى هذا السودانى من حياة ميرفت ..

إلى أن جاءتنى يوما وجلست بجانبى وهى مترددة هائمة تفرك فى يديها بعصبية وقالت بعد تردد :

– إنى فى حاجة إليك ..

قلت مداعبا وأنا أمسك بيديها بين يدى حتى تقاوم عصبيتها :

– طول عمرك فى حاجة إلىّ .. لأنى مستشار المتاعب .. ومتاعبك لا تنتهى .. خيرا .. ما هى آخر مشكلة ..

قالت وهى تخفى عينيها عنى :

– سنتزوج .. أنا وحسن ..

والواقع أن المفاجأة أذهلتنى رغم أنى كنت دائما فى انتظارها وأحسب حسابها .. وسكت برهة كأنى أبتلع هذه المفاجأة وقلت :

– ما رأى أبيك ؟

قالت وهى تتنهد كأنها تزفر متاعبها :

– إنه لا يعلم ..

قلت بسرعة :

– ولماذا لم تقولى له قبل أن تقولى لى .. ؟

قالت من خلال حيرتها :

– لأنى أعلم مقدما أنه لن يوافق .. إنه لم يكن سعيدا بمجرد صداقتى لحسن وكان يتعمد تجاهله والابتعاد عنه .. فكيف استطيع أن أقول له أننا سنتزوج .. لذلك جئت إليك لتتولى أنت ابلاغه .. لعلك تستطيع أن تقنعه وتخفف من حدته .. هذا إذا كنت أنت موافقا على زواجنا ..

وكانت ميرفت تقول أنها ستتزوج حسن كأن هذا سيحدث سواء وافقنا أم لم نوافق .. ولكنها فقط تقوم بواجبها وتبلغنا ، لذلك لم أقل لها إذا كنت أوافق على هذا الزواج أو لا أوافق .. وقلت لها :

– هل فكرت فى هذا الزواج بما فيه الكفاية ..؟

وقالت وهى تنظر إلىّ كأنها تلومنى :

– منذ أن عرفت حسن وأنا أفكر فى احتمال أن نتزوج .. واقتنعت .. أصبحت أعيش بكل فكرى وبكل خلجاتى فى انتظار ان نتزوج .. الحياة كلها هى أن اتزوج حسن ..

قلت مبتسما :

– طبعا بعد أن تنتهى من دراستك وتتخرجى فى الجامعة ..

قالت فى إصرار كأنه ثورة :

– لا .. سنتزوج خلال أيام .. وأنت تعلم أنى لست من هواة الدراسة ولا يهمنى أن أتم سنوات الجامعة .. أو أستطيع أن اتمها فى جامعة الخرطوم ..

قلت وكأنى صدمت مرة أخرى :

– هل ستعيشان فى الخرطوم ..

قالت كأنها تعلن ثورتها :

– لا يهمنى أين أعيش وكل ما يهمنى هو أن أعيش معه .. سأعيش مع حسن ..

قلت وأنا حريص على ابتسامتى وهدوئى :

– إن المجتمع فى الخرطوم يختلف عنه فى مصر .. العادات والتقاليد والعقول والنساء والرجال.. ويجب أن تحسبى حساب كل ذلك حتى تطمئنى إلى قدرتك على احتمال المجتمع الذى ستنتقلين إليه ..

وقالت وكأنها تسخر من كلامى :

– المجتمع كله يقوم على اثنين .. زوج وزوجته .. فتى وفتاة .. فإذا استطاع الاثنان أن يحتمل كل منهما الآخر ،

فإنهما يحتملان المجتمع كله مهما كان هذا المجتمع .. وطبعا أنا وحسن اصبحنا مجتمعا كاملا سواء عشنا فى مصر أم فى السودان ..

قلت وأنا أحاول أن أكون هادئا واستعين بابتسامتى لأخفى صدمتى :

– اسمعى يا ميرفت .. إن الإنسان الكامل يحمل مسئولية سعادة عائلته كلها .. فإذا تعارضت سعادته مع سعادة العائلة فقد يضحى بسعادته .. وهى تضحية كبيرة ولكنها تضحية تخف مع الأيام إلى أن يجد الإنسان طريقا آخر لتحقيق سعادته فى محيط سعادة العائلة .. وأنت مسئولة عن سعادة بابا وماما وبقية العائلة .. ففكرى أكثر ..

وقالت ، ويخيل إلى أن دموعها بدأت تلمع فى عينيها :

– إذا لم اتزوج حسن فسأكون تعيسة .. أتعس مخلوقة فى الدنيا .. وإذا كنت تعيسة فسأتعس معى بابا وماما واخوتى وأنت .. ستعيش العائلة كلها فى تعاسة .. وحتى لا أعرض العائلة لهذه التعاسة فسأتزوج حسن ..

وقلت وأنا أزفر يأسى :

– لماذا لا يذهب حسن ويحادث بابا ..

وقالت بسرعة :

– إنه مصمم ألا يطلبنى منه إلا بعد أن يتأكد مقدما من أنه موافق ..

وسكت برهة وأنا أفكر وأحس كأنى أفكر فى الهرب ثم قلت لها :

– ميرفت .. أفضل أن تبدئى أنت بالحديث مع بابا .. فقد عودك بابا على مصارحته بكل شىء ورباك على تحمل مسئولية نفسك بشرط المصارحة .. وهو لن يقبل أن أذهب إليه وأتحدث نيابة عنك .. بل إن هذا يضعف من حجتك أمامه وكأنك تقدمين على عمل تخافين أن تصارحيه به .. عودى إليه وقولى له كل شىء وأكثر مما سمعته منك .. وستظلين محتاجة إلىّ .. لأنى واثق أنه سيتعبك وسأقف بجانبك لأخفف عنك وعنه ..

ونظرت إلىّ ميرفت طويلا ثم شدت حقيبتها وقامت خارجة وهى تجرى بعد أن قالت :

– لك حــــق ..

وقالت ميرفت كل شىء لأبيها ..

وثار الأب ..

وثارت الأم ..

حتى أختها نرمين ثارت رافضة هذا الزواج ..

وانتهت ميرفت بأن خرجت من بيت أبيها وجاءت لتقيم عندى كما هى عادتها كلما اشتدت المناقشات بينها وبين أبيها.. وقد تركوها تقيم عندى دون أن يسألوا عنها كأنهم أعلنوا براءتهم منها ما دامت مصممة على الزواج من حسن .. والمناقشات لا تنتهى بينى وبين ميرفت ، وقد تعمدت أن أبعد زوجتى سعاد عن الاشتراك فى هذه المناقشات لأنى أعرف أنها لن تحيد عن رأيها .. وبعد يومين قدرت أن أخى مدحت قد يكون قد هدأ قليلا فذهبت إليه .. واستقبلنى ساخطا وأدار وجهه عنى قائلا :

- إذا كنت قد وافقتها فلا أريد أن أسمع منك أى كلمة ..

قلت وأنا ابتسم حتى أخفف من ثورته :

- لا يهم أن أوافق أنا أو توافق أنت .. المهم رأيها هى ..

وصرخ أخى مدحت :

- إنك تقول هذا الكلام لأنها ليست ابنتك ..

قلت وأنا حريص على أن أكون هادئا :

- أنت تعلم أنى أعتبر ميرفت كأنها ابنتى .. ولكنها أقوى منا نحن الاثنين .. أنت وأنا ..

وصرخ أخى :

- كيف تكون البنت أقوى من أبيها ..

وقاطعته قائلا :

- كل الأولاد والبنات أقوى من الآباء والأمهات لأن هناك حالات تقوى فيها مطالبهم الشخصية إلى حد أن تصبح هذه المطالب أقوى من عواطفهم التى تربطهم بالأب والأم .. إن ميرفت تستطيع أن تتزوج حسن دون موافقتك .. تهرب معه .. أو تستطيع أن تستسلم لتعذيب نفسها وتعذبنا معها .. وأنت قد عودت بنتيك على أن تختار كل منهما رجلها بنفسها .. ومنحتهما حرية كاملة فى الاختلاط بالشبان .. وكانت النتيجة أن اختارت ميرفت ، حسن .. فهى لم تخرج عن الحدود التى حددتها لها .. ولم تخطىء ..

وصاح أخى كأنه يدافع عن نفسه :

- لقد تركت للبنتين هذه الحرية حتى أعودهما على مصارحتى بكل شىء .. إنى أترك البنت تلتقى بالولد لأنى

مطمئن إلى أنى أنا أو أمها سنعرف كل صور هذا اللقاء ، وإذا كان قد خامرنى شك فى تصرف أى بنت من البنتين لسحبت منها الحرية وحبستها فى البيت .. وقد تركت لهما حق الاختيار على أن أوافق على هذا الاختيار .. إن من واجب كل بنت أن تختار من يشرف أباها وعائلتها .. ومن حقى أن أطمئن إلى من تختاره ابنتى ..

وقلت مبتسما فى هدوء حتى لا أشاركه ثورته :

- ولماذا لا تطمئن إلى حسن بابكر ؟

وعاد أخى يصيح وهو يرتعش بعصبية :

- إنى متأكد أن ميرفت لم تختره نتيجة تفكير سليم فى مستقبلها معه .. إن الزواج هو بناء المستقبل .. فماذا ستبنى ميرفت مع هذا الشاب الذى اختارته .. إنهااختارته نتيجة مجرد نزعة إعجاب .. وأنت نفسك سبق أن قلت أنها تضعف أمام الشبان السمر أو السود .. وقد استغل هذا الشاب ضعفها .. ولا يمكن أن أتركه يصل إلى تحقيق أغراضه ..

وقلت وأنا أفتعل ضحكة :

- إن اختيار اللون هو مجرد تعبير عن الذوق الفنى .. قد يفضل الذوق اللون الأبيض أو الأسمر أو الأسود أو الأصفر أو الأحمر أو البرتقالى .. ولكن الذوق وحده لا يكفى لبناء الحب ولا للاقتناع بالزواج ..

وأنت كان من ذوقك اختيار اللون الأبيض الأشقر لذلك تهافت على زوجتك نيفين إلى أن تزوجتها .. وهى أيضا كان ذوقها يميل إلى اللون الأسمر فاختارتك ربما لأنك أغمق

سـمارا منـى .. ولكنى واثق أنه ليس لونك ولونهـا همـا اللذان جمعاكما وحقق حياتـكما الزوجية وشملكما بالسعادة .. ولكنه التقاء وتكامل الشخـصيتين .. شخصيتك وشخـصيتها .. وإذا كانت ميرفت تبحث عن مجـرد اللون فإن فى الجامعة عشرات من الطلبة السودانيين والأفريقـيين فلم لم تختر إلا حسن ؟ بل إن بين المصـريين مـلايين من أصـحاب اللون الأسـود فلمـاذا لم تقع فى حب واحد منهم ووقعت فى حب سودانى .. بل إنى أعرف أنها تعـرفت بشبان سود قبل أن تـعرف حسن ولم تقع فى الحب ولم تـفكر فى الزواج بواحـد منهـم .. إنى واثق أن ما يجمع بيـن ميرفت وحسن ليس لونه ولونهـا .. ولكن التقاء شـخصـيتـهمـا إلى حد أن تصـمم كل هذا التـصمـيم على أن تتزوجه حـتى مع عدم موافقتك .. حتى وهى تعلم أنهـا تتعبك رغم أنها لا شك تحبك وتفخر بك كأب ..

وفجأة .. قبل أن يتكلم أخى .. دخلت علينا زوجـته نيفين .. لقد كانت فى الغـرفة المجاورة تستمع إلى كل مـا نقوله وقالت وهى أشد عصبية من زوجها ودون أن تقرئنى التحية :

– أنا لا يهمنى من اخـتارته ميرفت .. كل مـا يهمنى هو أن أطمئن عليها وعلى حيـاتها .. وأنا لا أعرف السودان ولا أعرف كيف ستعيش ابنتى هناك وإن كنت متأكدة أنها لن تتحمل هذه الحياة أو ستتحملها على حـساب سعادتها وهنائها .. حتى أنى قلت لها أننا نوافق على الزواج إذا أقامت هى وزوجها معنا هنا فى القـاهرة .. ولكنها قـالت أن هذا الولد مضطر أن يعـود إلى بلده .. ثم أنى لا أقـبل أن تتزوج مـيرفت قـبل أن تتخـرج فى

الجامعـة سواء تزوجت هذا الشاب أو غيره .. وإذا كان يحـبها فعـلاً فلا يجب أن يمزق مـستقـبلها بل ينتظر إلى أن تتـخرج حتى لو أعلنا الخطوبة ثم يتزوجها .

وكانت نـيفين تعـبر عن نوع من الـتحايل الذى حـاوله كل أفراد العائلة لإنقاذ ميرفت من هذا الزواج .. فهى لن تنتهى من الجامعـة قبل عامين .. وسيكون حـسن فى الخرطوم وهى فى القـاهرة .. ومن يدرى .. ربما فى هذا الوقـت الطويل يكون كل منهما قد نسى الآخر .. أو تكون ميرفت على الأقل قد تخلصت من الحب الكبير وأصبح حبا ضعيفا يمكن التغلب عليه ..

وقلت لنيفين وأنا أهز رأس معلنا اليأس :

– لقد عـرضت على ميرفت هذا الاقتـراح .. أن تنتظر حتى تنتهى من الجـامعة .. ولكنهـا رفضت وقالت أنهـا تستطيع أن تتم دراستـها فى جامعـة الخرطوم ولو أنها ليـست متحمـسة لحمل شـهادة جـامعيـة .. وبصراحة .. لقـد قالت لى أنهـا قد تتـزوجه بعـيدا عن الـعائلة وتسـافر مـعـه ، أو تسافـر معـه وتتزوجه هـناك .. وأنا من رأيى أن نوافق على الزواج ونتوكل على الله .. إنهـا ستحـمل مسئـولية نفـسها ولـن تلوم أحدا إذا فشل هذا الزواج .. ثم أنه لـن يكون زواجا غريبـا فالآلاف من المصريات يتزوجن من سودانيين .

وقال أخى محتدا :

– لابد أنه زواج تم بموافـقـة العـائلة .. أو أن هناك ظروفـا خاصة تدفع المصرية بأن تتزوج فى السودان .. ولكن بالنسبة

ميرفت لا العائلة موافقة وليست حولها ظروف تؤيد زواجهما في السودان ..

وقلت وأنا أزداد يأسا :

– إنها ظروف الحب وحرية الاختيار ..

وقال أخى وهو يدير ظهره لى بينما ألقت زوجته بنفسها على مقعد وألقت برأسها بين كفيها كأنها تهم بالبكاء :

– دعنى الآن .. إنك لن تستطيع أن تقنعنى ..

وقلت وأنا أهم بالانصراف دون أن أحس بأن أخى يطردنى:

– إن كل ما أحرص عليه هو أن أحتفظ بميرفت حتى لا تهرب وحبيبها بابكر يساعدنى .. إنه مصمم على ألا يتم الزواج إلا بموافقتك ولذلك يؤجل عودته إلى بلده .. وأحب أن أقول لك أننا يجب أن نكون مع ابنتنا حتى لو كانت مجنونة .. لنعتبر كأنا لم نتركها تذهب إلى السودان بل أدخلناها مستشفى المجانين ..

ولم يرد أخى بكلمة ..

وتركنى أخرج دون أن ينظر إلى ..

•••

كانت ميرفت وهى تقيم عندى على اتصال دائم بحبيبها حسن بابكر ، وكانت تدعوه كل يوم إلى البيت وهى مطمئنة إلى أنى أسمح لها بدعوته .. ولكن حسن لم يكن يأتى كل يوم .. وفى المرات التى كان يأتى فيها ويجلس معنا كنت أزداد إعجابا بشخصيته .. بهدوئه .. ومبادئه المتحفظة التى كان يعبر عنها فى كل أحاديثه .. وكان واضحا أن ميرفت أكثر جرأة

وتحررا منه .. وكانت هى التى تبدى استعدادها للزواج حتى ولو لم يوافق أبوها .. وكان حسن هو الذى يصر على أن يصل إلى رضاء الأب ، وقال لها مرة أمامى :

– إنى لا أستطيع أن أصحبك أمام عائلتى وكأنى خطفتك .. إن عائلتى لا ترضى بنا كخاطف ومخطوف .. ثم إن رفض والدك لزواجنا فيه ما يمس كرامتى وكرامة عائلتى .. كأنه يعتبرنا وكأننا لسنا ممن يشرفه مصاهرتهم .. إنك لا تعرفين حساسية عائلات السودان .. إنى أعترف بأننا شعب معقد خصوصها بالنسبة لمصر .. ولا يمكن أن نعترف بأن هناك فارقا يصل إلى حد أن يتزوج سودانى من مصرية دون موافقة العائلة المصرية .. ونحن نصر على أن تتشرفوا بنا كما نتشرف بكم ..

وقالت ميرفت فى عناد :

– أنت تعلم أنى متشرفة بك .. ولا شك أنك متشرف بى .. بى شخصيا .. إنك تتزوجنى أنا ولست تتزوج بابا ..

وقال حسن من خلال ابتسامته الهادئة التى تكشف عن أسنانه التى تلمع فى سواده :

– المفروض أن العائلة تتزوج العائلة .. أى المصاهرة ...

وقالت ميرفت كأنها تتحايل عليه :

– إنى واثقة أننا لو تزوجنا فلن يمر شهر أو شهران إلا ويغير بابا رأيه ويرضى عن زواجنا مادام قد تأكد أن ابنته سعيدة .. وقد يأتى لزيارتنا بنفسه فى الخرطوم .. إنى متأكدة

أن بابا يحبنى .. وماما .. وأنا أحبهما .. ولن نتخلى عن بعض أبدا .

ورد عليها حسن فى هدوء :

– أفضل الانتظار .. إنى لم أفقد الأمل .. وهو ما يجعلنى أؤجل عودتى إلى الخرطوم رغم الحاح أهلى علىّ بالعودة .. أريد أن أعود إليهم وأنا أفرحهم بك ..

وقالت ميرفت فى عصبية وكأنها تلومه :

– إلى متى تستطيع أن تنتظر .. ماذا إذا أصر بابا على الرفض .. كن صريحا يا حسن ..

وقال حسن وهو ينظر إليها فى حب :

– سنتزوج حتى لو اضطررنا أن نعيش لا فى الخرطوم ولا فى القاهرة .. إذا ظل والدك رافضا فسنتزوج ونهرب إلى بلد نستطيع أن نعيش فيه كهارب وهاربة .. أو خاطف ومخطوف .. واعتبرنه نفسك منذ اليوم أنك زوجتى ..

●●●

وكان قد مر يومان منذ زيارتى الأخيرة لأخى مدحت عندما أتصل بى وطلب منى أن أعود إليه وأن أصحب معه ابنته ميرفت .

وانطلقت الفرحة بى .. مادام يريد أن تعود إليه ميرفت فمعنى ذلك أنه وافق على زواجها من حسن .. وهو ما أحست به ميرفت نفسها .. وفرحت وكل ما فى وجهها يرتعش من الفرحة كأنها تزغرد .. واستقبلنا أخى وزوجته فى برود .. ولم يبد على أحدهما أنه كان فى وحشة ابنته .. بل كانا كأنهما

يقومان بواجب فى رثاء عزيز عليهما ..

وقال مدحت لابنته فى كلمات صارمة :

– لقد قال لى عمك أن أعتبر الموضوع وكأنى أدخلتك إلى مستشفى المجاذيب لأنك مجنونة .. وهذا ما دفعنى إلى الموافقة على زواجك لأنك مجنونة .. وإن كنت أتمنى على الله أن اكتشف العكس وأراك سعيدة .. سعادة العقلاء .. وشجعنى أكثر أنى سألت عن حسن .. حسن بابكر الفكى .. لقد كان فعلا طالبا ممتازا فى الجامعة .. وهو من عائلة محترمة من عائلات الخرطوم وأبوه يعتبر من كبار التجار هناك .. ولا أعرف عنه شيئا أكثر من ذلك ولا أريد أن أعرف .. وقد وافقت على هذا الزواج وأمرى وأمرك فى يد الله .

وقفزت ميرفت وتعلقت بعنق أبيها وإنهالت عليه بالقبلات .. وهو يحاول ألا يرد قبلاتها .. ولكنه لم يقاوم طويلا حتى مد ذراعيه واحتضنها وقبلها .. ثم تركته وارتمت فى أحضان أمها .. وأمها تبادلت القبلات ثم إذا بها تبكى وميرفت أيضا بدأت تبكى ..

وتم بعد ذلك كل شىء فى سرعة عجيبة .. كل شىء تم فى أيام ..

وقد جاء حسن فى اليوم التالى إلى البيت واستقبله أخى ليس فى برود ولكن استقبالا كأنه استقبال رسمى .. ورفض أخى أن يقبل مجرد الحديث فى المهر أو الشبكة .. رغم أن حسن حاول أن يعرض ما يستطيع أن يقدمه .. لا .. إن عقد القران سيتم يوم الأربعاء القادم ويسافر العروسان إلى

الخرطوم يوم الخميس .. ولن يقام حفل .. لم يدع إلا العائلتين.. عائلة أخى وعائلتى .. بل أن ميرفت لم تلبس ثوب العرس .. كأنه زواج سرى تخفيه عن الناس .. ولم يكن مع حسن إلا قريب له من السودان يقيم فى القاهرة .. وقلنا أننا أضطررنا لعقد الزواج بسرعة وبلا حفل لأن العريس كان مضطرا للسفر .

ولم تتم الدخلة بين العروسين يومها ..

إن أخى هو الذى طلب أن تتم الدخلة فى الخرطوم .. يريد من ابنته أن تنام وحدها فى بيته إلى أن تختفى عنه ..

ولم يسافر أحد من أفراد العائلة مع العروسين إلى الخرطوم .. كان يجب أن تسافر معها أمها على الأقل كما تقضى التقاليد .. ولكنها اعتذرت .. وأخى اعتذر .. وحتى نرمين أخت ميرفت اعتذرت .. رغم أن حسن وجه الدعوة إليهم جميعا .

لم يسافر مع العروسين إلا ابنى ياسر .. الذى كانت أحلامه فى أن يبدأ مشروعات زراعية فى السودان تكبر وتكبر معها صداقته لحسن ..

وأنا الوحيد الذى كنت فى وداع العروسين فى المطار ..

٣

وصلت ميرفت إلى الخرطوم وعيناها مفتوحتان ولا تكف عن التلفت حولها كأنها تريد أن ترى كل شىء فى لحظة .. ورغم أن حسن كان قد أبلغ عائلته بزواجه تلغرافيا إلا أن أحدا لم يكن فى استقباله .. لعله لم يبلغ العائلة بموعد وصوله مع عروسه حتى لا يكلفهم متاعب الاستقبال .. ولكن ميرفت لم تكن تنتظر ألا تجد أحدا فى استقبالها .. بالعكس كانت تنتظر أن تجد العشرات على الأقل ليتفرجوا على العروس ، ولذلك اهتمت بتزيين نفسها وعقص شعرها قبل أن تهبط بها الطائرة .. وكانت وهى تزين نفسها تحاول أن تختار ما تتصور أنه من تقاليد وعادات السودان .. هل تثقل من صبغ شفتيها بالأحمر أم تخفف منه .. هل تغطى شعرها الأشقر بالإيشارب أم تتركه منطلقا كما تعودت .. هل تلبس الجاكيت الخفيفة التى تكمل ثوبها حتى تغطى كتفيها وذراعيها .. إن الجو حار ولن تستطيع أن تضع هذه الجاكيت ولكن من الأفضل أن تضعها .. و ... و ... وبعد كل هذا الجهد الذى استغرق كل ساعات الطيران ، نزلت ولم تجد أحدا فى استقبال العروس ..

استقبالها.. أحسن .. لقد أعفوها من التكلف المتعب الذى تفرضه تقاليد الاستقبال ..

ونظرت ميرفت إلى حسن فى دهشة وهى تبتسم ابتسامة فرحة .. إنه تغير منذ وضع قدميه على أرض السودان .. إنه يبدو أكثر جدية مما تعودت أن تراه .. وقد اختفت ابتسامته الدائمة من فوق شفتيه .. وهو يسبقها فى سيره بعدة خطوات وهى تحس كأنها تجرى وراءه وابن عمها ياسر يجرى بجانبها.. وقد أنهى إجراءات الوصول دون أن يلتفت إليها أو يقول كلمة ، وجمع الحقائب وحملها اثنان من الشيالين ، ثم انتظر إلى أن لحقت به ودفعها فى السيارة ولم يركب بجانبها ركب بجانب السائق .. لقد عرفت فيما بعد أن التقاليد فى السودان لا تسمح بأن يركب الرجل بجانب المرأة فى السيارة..

ونظرت إليه كأنها تكتشف فيه شيئا جديدا .. إنه أكثر سودانية منذ وصل .. لم يكن سودانيا إلى هذا الحد وهو فى القاهرة .. وهى تحس كأنها تعجب به أكثر بعد أن أصبحا فى السودان .. تحبه أكثر .. وقالت من خلال ابتسامة تعبر عن فرحتها :

– ألم يكن أحد من العائلة فى استقبالنا ؟..

لعله كان هناك بعض رجال العائلة ولم يرد حسن أن يقدمهم إليها أو يقدمها إليهم ..

وقال حسن وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة سريعة تكشف عن أسنانه البيضاء .. كانت أسنانه قد أوحشتها منذ نزلا من الطائرة ..

– إنهم يعدون لاستقبالنا فى البيت ..

إن البيت مكون من عدة حجرات وصالونات قائمة على الارض وكلها مطلية من الخارج باللون الأبيض ، وهى وسط فناء واسع جدا .. ليس حديقة .. فليس فيه إلا شجرة أو شجرتان متباعدتان .. وكان والده الحاج بابكر الفكى فى استقبالهم عند مدخل البيت .. وصافح ميرفت محتفظا بمظهره الجاد المتعالى ولكنه أطال النظر إليها ثم التفت إلى ابنه وبين شفتيه ابتسامة ضيقة كأنه يعذره لأنه استجاب لكل هذا الجمال .. ثم صافح ابن عمها ياسر وهو يردد كلمة ترحيب ضعيفة كمجرد إجراء الواجب .. ثم أخذه وحده واتجه به إلى إحدى الحجرات .. ربما صحبه إلى مجلس الرجال .. بينما ترك ابنه حسن يصحب ميرفت إلى باب آخر .. ووجدت نفسها بين مجموعة من النساء بعضهن يرتدين « الثوب » السودانى وبعضهن فى جلاليب مطرزة .. وتقدمت إليها أم حسن .. ستنا.. ورغم أنها احتضنتها إلا أن ميرفت أحست أنها تحتضنها فى برود .. وأخته سارة كانت أكثر برودا .. لقد هزت يدها ثم أدارت لها ظهرها وابتعدت عنها .. وكل النساء ينظرن إليها مبحلقات متفرسات ومعظمهن يقلبن شفاههن كأنهن يعلنَّ قرفهن .. لا شك أن النار تلتهب فى أحشائهن غيظا.. كل منهن كانت تتمنى أن يتزوج حسن من السودان .. أن يتزوج واحدة منهن أو ابنة إحداهن .. وحتى إذا كان الشيطان قد أوقعه فى الزواج من مصر فلماذا تزوج هذه البيضاء الشقراء .. لماذا لم يتزوج سمراء حتى يكون قريبا من

بلده .. حتى لا يقول للعالم أنه لا يطيق بنات بلده لأنهن غامقات .. لا شك أن عائلة حسن ليست مرحبة بهذا الزواج كما لم ترحب به عائلتها ..

ولكن كانت هناك واحدة استقبلت ميرفت بترحيب صادق واستراحت لها ميرفت بسرعة .. لقد قبلتها واحتضنتها ثم أخذتها وأجلستها وجلست بجانبها وهى لا تكف عن الكلام .. إنها ابنة خالة حسن .. وأسمها خدوم .. وهى خدوم فعلا لا تكف عن سؤال ميرفت عما تحتاجه وتلبيه لها ..

وقد طالت جلسة النساء والحديث لا يكف ويعلو كأنه صراخ .. وميرفت حائرة فى فهم اللهجة السودانية .. إنها لا تفهم شيئا .. وكان حسن وهو فى مصر تنطلق أحيانا على لسانه كلمات من اللهجة السودانية تضحك لها ميرفت ولكن حديثه كان دائما باللهجة المصرية ، ولم يحاول أن يدرب ميرفت على لهجته حتى لا تفاجأ بها عندما تنتقل معه إلى بلده .. ولكن خدوم اكتشفت بذكائها أن ميرفت لا تفهم اللهجة التى يتحدثن بها فكانت تحدثها باللهجة المصرية التى تجيدها وتترجم لها ما تسمعه عن اللهجة السودانية .

وخدوم ليست غامقة اللون .. ليست من اللون الأسود الغطيس .. ولكنها سمراء .. بل إن سمارها فاتح كأنها فتاة من مصر .. وألوان البشرة تتعدد فى السودان وأحيانا داخل العائلة الواحدة .. ورغم أنه تعدد داخل الأصل الواحد .. الأصل الغامق .. إلا أنه توجد حساسيات اجتماعية بين الفاتح والغامق وكل من اللونين يتحدى الآخر .. أما أبناء الزواج

المختلط بين الأسود والأبيض .. والذين قد يكون بينهم الأبيض أو الأسمر أو الأسود فهم يكونون مجتمعا قائما بذاته يعتبر كأنه مجتمع أجنبى له تقاليده الخاصة التى تخلط بين التقاليد المحلية والتقاليد المستوردة .. وأهل البلد يعتبرون أفراد هذا المجتمع كأنهم غرباء بل أحيانا يعلنون الثورة عليهم .. وميرفت تسائل نفسها وهى تنظر فى وجه خدوم .. ترى ماذا سيكون لون أولادها .. سود كأبيهم أم بيض كبياضها .. وتبتسم بينها وبين نفسها وهى تحس بالفرحة أمام كل ما ينتظرها ..

وطالت الجلسة أكثر حتى منتصف الليل .. إنهم هكذا فى السودان يعيشون الليل أكثر مما يعيشون النهار .. وحسن اختفى منذ سلم زوجته إلى أمه .. إنه سهران فى جلسة العروس مع الرجال .. وميرفت بدأت تتعب وتزهق ، وهمست فى أذن خدوم :

- تعبت .. أريد أن أستريح ..

وقفزت خدوم من جلستها بسرعة قائلة :

- تعالى يا حبيبتى ..

ثم شدتها دون أن تستأذن أحدا ودخلت بها غرفة واسعة .. إنها الغرفة التى خصصت للعروسين وستكون لهما .. وفيها كل شىء ولكن لا شىء جديد .. لعل الملاءات التى تكسو السرير هى وحدها الجديدة .. والحقائب التى عاد بها العروسان من مصر مكدسة فى جانب من الغرفة .. وقالت لها خدوم :

- هل أبقى معك حتى أساعدك فى فتح الحقائب ؟..

وقالت ميرفت بسرعة :

- لا .. شكرا .. لن أفتح الحقائب الليلة .. إنى متعبة ..

وقالت خدوم ضاحكة :

- إياك أن تنامى قبل أن يأتى حسن وإلا كانت حكاية .. وحكاياتنا لا تنتهى وقاك الله منها ..

ثم قبلتها خدوم وتركتها وحدها .. وألقت ميرفت بنفسها على الفراش وهى متعبة فعلا .. ثم تحاملت على نفسها وقامت وفتحت إحدى الحقائب وأخرجت ثياب النوم .. ولم تتعمد أن تختار ثياب ليلة الدخلة بل التقطت أول ثوب التقى بأصبعها .. وغيرت ثيابها وفكت شعرها وأطلقته حرا ثم عادت ورقدت على الفراش وهى تحاول ألا تنام إلا بعد أن يعود إليها حسن .. ولكنها لم تستطع أن تقاوم وبدأت تغفو ثم فتحت عينيها على صوت أقدام حسن وهو يفتح الباب ..

ودخل حسن مبتسما ابتسامة كبيرة ونور أسنانه ينطلق من شفتيه وكأنه لم يأت أمرا شاذا بترك عروسه وحدها كل هذه الساعات وقال ضاحكا :

- إن أمى ساهرة تعمل من أجلك ..

وقالت ميرفت وهى تتثاءب :

- وماذا تعمل من أجلى ؟..

وقال حسن من خلال ضحكته :

- إنها تعد لك الحناء .. إنها تقول لا يمكن أن تحس بك كعروس لابنها إلا ويداك وقدماك مكسوة بالحناء ..

وابتسمت ميرفت .. وفرحة تقفز فى صدرها النائم .. إنها فرحة بأن تتحلى بالحناء كما كانت تسمع عن عرائس زمان فى مصر ..

وكأن ميرفت تذكرت فجأة فنظرت إلى حسن فى لهفة قائلة :

- أين ياسر ابن عمى ؟..

وقال حسن من خلال ابتسامته :

- لقد كان يفكر أن يذهب ويقيم فى فندق ولكن الوالد أصر على أن يقيم فى ضيافته .. وقد كانت مشكلة ..

وقالت ميرفت فى دهشة :

- أى مشكلة ؟..

وقال حسن جادا :

- إنه مهما كان لا يزال غريبا عن حريم الدار .. وقد خصصت له دار الضيافة ..

وقالت ميرفت محتدة :

- أين هذه الدار ؟..

وقال حسن بلا اهتمام :

- فى نهاية الفناء ..

وقالت ميرفت ساخرة :

- وكيف سأرى الغريب عن حريم الدار وهو ابن عمى ؟..

وبدأ حسن يبدل ثيابه وهو يقول :

- طبعا سترينه ..

وسكتت ميرفت وقد بدأ استسلامها للنوم يغلبها ..

وبدل حسن ثيابه وارتدى جلباب النوم وانحنى على ميرفت يقبلها .. وقالت ميرفت فى رجاء حلو :

- إنى متعبة يا حسن .. ليس الليلة .. لن أحتمل ..

وقال حسن من خلال ابتسامته :

– على كل حال نحن فى انتظار أمى .. إنها مصرة على أن تصبغك بالحناء الليلة حتى لا يرى الناس العروس غدا وهى ليست محناة فيعتقدون أنك خواجاية غريبة ..

وسكتت ميرفت .. لقد علمت أن الحناء عنصر أساسى من مظاهر الزواج .. وليس من حق أى فتاة أن تتزين بالحناء إلا عندما تتزوج ، وإذا أصرت فتاة أن تتحنى قبل أن تخطب ويحدد موعد زفافها فليس من حقها أن تحنى إلا يدها اليسرى ، حتى يعرف كل من يراها أنا لم تخطب ولم تتزوج بعد .

ولم تستطع ميرفت أن تستمر فى خيالها .. نامت بين ذراعى حسن .. ثم فتحت عينيها بعد مدة وهى مذعورة فرأت أمامها ستهم أم حسن تصبغ كفيها وقدميها بالحناء وتلفها بقطع القماش وتمسك بابرة وتنقش بها رسوما بالحناء على جلدها .. لقد كانت تحنيها وهى نائمة .. وابتسمت ميرفت ابتسامة نائمة ثم عادت إلى النوم مستسلمة لحماتها تفعل بها ما تشاء ..

●●●

وبدأ نساء العائلة وبناتها يهتممن بميرفت منذ صباح اليوم التالى كأنهن يعدونها لعقد القران الجديد .. وميرفت فرحة بالحناء والنقوش التى أصبحت تصبغ يديها وترفع أصابعها أمام عينيها كأنها تتفرج على شىء جديد غريب أو كأنها تتفرج على فرحتها .. ثم شدتها صديقتها خدوم ومعها سارة أخت

...سن وأرقدنها على الفراش ونزعن عنها ثوبها وأخذن ...ضمخن جسدها كله بعجين الأمكا أو اللاضوخا ، وهو دقيق ...عجون بسائل من العطور يضمخ به النساء المتزوجات أجسامهن ومحرم على البنات .. وميرفت تصيح :

– ماذا تفعلن بى ؟

وردت خدوم ضاحكة :

– إننا نفعل بك ما تتمنى كل واحدة منا أن تفعلوا بها ..

ولم تسترح ميرفت إلى هذا العجين الذى ضمخت به كلها ولم تجذبها رائحته .. إنها تحس بأنها تهم أن تجرى وتقف تحت الدش حتى تزيل هذه اللزاجة التى تعانيها .. ولكن خدوم خففت عنها عندما جاءتها بزجاجة من عطر الدلكا .. إنه عطر سودانى مخصص للعروس فى ليلة زفافها لأن المفروض أنه عطر يثير شهية الرجل .. شهية الزوج .. وقد أحبت ميرفت رائحة هذا العطر .

ولم تكن هناك نية لإقامة حفل زفاف كامل للعروسين .. إن حفلات الزفاف فى السودان تستمر سبعة أيام وليال .. وتجمع كل الأحبة وكل المعارف وكل الناس .. ولكن زواج حسن وميرفت ليس زواجا سودانيا كاملا .. إن العائلة ليست سعيدة ولا فخورة به .. وكل ما يخفف عنها أن عروس ابنها من عائلة محترمة فى مصر وأباها معروف بقيمته ونفوذه لذلك لم تفكر فى إقامة حفل زفاف كامل كأنها تتعمد ألا تجاهر بالفضيحة .. ورغم ذلك كان النساء والبنات يجتمعن كل ليلة فى سهرة عائلية يحيينها بالغناء ورقصة اليمامة .. وكن يتعمدن أن

يعلمن ميرفت كيف ترقص اليمامة وكانت ميرفت تقبل فرحة .. إنها تعتبر أن رقصة اليمامة رقصة معبرة رقيقة رشيقة تبرز أجمل ما فى مواهب المرأة .. وكما اغتبص العالم كل موسيقى افريقيا ليرقص عليها فسيأتى اليوم الذى يسرق فيه العالم رقصة اليمامة وتصبح رقصة عالمية .. بل إن نساء العالم اتفقن على أن يدعون فى ليلة المطربة الطقطاقة .. إنها أشهر عالمة فى الخرطوم .. ولكنها لن تقوم بزف العروسين ولكنها ستحيى الليلة بالغناء والرقص .. وميرفت تستمع إلى الأغانى وتعيش الضجة .. وتحاول أن تفهم كل كلمة أغنية : « القمر بوبا عليك » .. أى أن القمر على وجهك .. وأغنية « العجيبة لك » .. أى « عقبالك » .. وخدوم تترجم لها كلمات اللهجة السودانية ثم تشدها وتقوم ترقص معها رقصة اليمامة .. وتضحك ميرفت .. إن ضحكتها ليست مقبولة يجب أن تبدو فى حياء وخفر العروس حتى بين النساء ..

والرجال أيضا كانوا يسهرون الليالى مرحبين بحسن ويهنئونه بالزواج .. بعضهم يهنئه جادا وأقرب أصدقائه يهنئونه ضاحكين .. والله عرفت تصطاد من مصر .. لقد سمعنا أنها شقراء .. يا حسرة بنات السودان .. واشترك الأصدقاء فى إحياء إحدى الليالى فدعوا لاحيائها المطرب الشعبى السودانى ترباس .. وأخذ يغنى أغانيه السودانية الصرفة لا يقلد فيها عبدالوهاب ولا عبدالحليم .. والنساء ملتفات خلف الأبواب والنوافذ ويستمعن له ويتجاوبن معه ويهتززن على أنغامه دون أن يراهن الرجال .. ولكن ميرفت تجرأت لحظة وأطلت

بوجهها كله من الشباك بحيث يمكن أن يراها كل الرجال .. كانت تبحث بعينيها عن ابن عمها ياسر حتى تطمئن إلى أنه سعيد .. وفى لحظات رأت حسن يخطو سريعا نحوها ويدخل من الباب ويشدها من جانب الشباك وهو يقول هامسا فى عنف :

– لا يصح أن تعرضى نفسك على الرجال ..

وقالت فى دهشة :

– أنا لا أعرض نفسى ولكنى كنت أريد أن أطمئن على ابن عمى ..

وقال وهمسته ترتعش غضبا :

– ليس هذا وقته ..

وقالت متعجبة :

– لماذا ؟..

وقال وهو يدير لها ظهره ويبتعد :

– لأننا فى الخرطوم ولسنا فى القاهرة ..

ولم تغضب ميرفت .. وتتبعته وهو يبتعد عنها بعينين ملؤهما الحب .. أنها تقضى كل هذه الليالى وهى فى انتظار اللحظة التى يقفل فيها الباب وهى بين أحضان زوجها حسن .. اللحظة التى يرتفع فيها الحب فلا يكتفى بلقاء الشخصيتين ويستكمل نفسه بلقاء الجسدين .. أنها تحس كأنها تطير لحظتها هيمانة إلى قمة الانبهار بالسعادة التى وهبها الله لبنى الإنسان .. بل إنها تتمنى أن تقضى كل أيامها ولياليها فى هذه اللحظات حتى أنها أصبحت تضيق بهذه الليالى الساهرة وأصبحت تلومه لتغيبه عنها طوال النهار ..

وكانت بين أحضانه تقول له متفاخرة أنها استطاعت أن تتعلم وتجيد كل الحياة السودانية .. أنها تعيش كلها فى تقاليد المجتمع السودانى والبيت السودانى .. حتى المطبخ السودانى .. أنها تجيد الآن طهو معظم الأطعمة السودانية .. « بولاح » .. أنهم يسمونه فى مصر « ويكة » ولكن الويكة السودانى شىء آخر .. بل أجادت إعداد « التركين » الذى يقدم للأفطار .. إنه نوع من الفسيخ يطهى بالزيت ويعجن بالفول السودانى .. وأشياء غريبة .. وأصبحت تتعجب كيف قضت عمرها بعيدا عن تذوق الشطة .. الطعام بلا شطة لا طعم له .. لقد أصبحت سودانية كاملة ..

وقال حسن وهو يبتسم ابتسامته التى تبرق فيها أسنانه البيضاء :

– بقى شىء حتى تصبحى سودانية كاملة ..

قالت فى حماس وفرحة :

– أى شىء ؟..

قال وهو يرخى عينيه عنها :

– الختان ..

وقالت وجفونها ترتجف من الدهشة :

– ماذا تقصد ؟..

قال من خلال ابتسامته :

– حتى أشعر أن زوجتى سودانية يجب أن أحس بها مختتنة كبقية زوجات السودان ..

وابتعدت عنه وهى تائهة فى أفكارها كأنها فوجئت بصدمة لم تخطر أبدا على بالها .. وقالت :

– إن ختان البنات أصبح محرما منذ عشرات السنين وفى العالم كله .. إنه يؤذى كيان البنت والزوجة حتى أن الطب أصبح يحذر منه ..

وقال جادا كأنه يريد أن يفرض رأيه :

– منذ ملايين السنين والبنات فى السودان يختن وعلى الطريقة السودانية وكلهن والحمد لله فى صحة وعافية وأولادهن أكثر صحة من أولاد مصر ..

وقالت وهى تحاول أن تبتسم :

– لقد كبرت على التختين يا حسن ..

وقال بسرعة :

– أبدا .. إنك تصلحين للتختين .. وقد سألت وتأكدت .. أمى مطمئنة إلى إجراء التختين لك .. ثم إنك لا تكبرين أبدا فى نظرى وفى إحساسى ..

وقالت وهى تائهة :

– لقد فاجأتنى .. دعنى أفكر قبل أن أعدك ..

وأدار لها ظهره دون أن يرد عليها كأنه غاضب منها ..

وقد فتحت موضوع الختان مع صديقتها خدوم فى صباح اليوم التالى تسألها عن الطريقة التى تتم بها عملية الختان فى السودان .. إنها هناك كأنها عملية ذبح .. كأنهم يقطعون للبنت اذنها أو أنفها أو ذراعها .. يقطعون كيانا كاملا من أعضائها الحسية .. والهدف من الختان ليس تطهير الجسد من قطعة من الجلد لا حاجة للإنسان لها .. كتطهير الرجل .. ولكن الهدف يفرضه الرجل وهو يعامل المرأة كأنها عبدة من الرقيق ..

تفرضه أنانيته وسيطرته وضعفه أمام نفسه .. إن كل الهدف من هذه العملية هو القضاء على الاحساس الجنسى الأنثوى فى المرأة .. وتصبح كأنها قطعة من القماش أو لوح من الخشب يفرخ فيه الرجل فحولته .. ومن يجرى عملية الذبح .. ليس طبيبا خبيرا .. إن الطبيب المحترم لا يقبل أن يكون مجرما ويذبح قطعة من لحم برىء .. إن العملية تقوم بها القابلة .. المولدة .. امرأة جاهلة ورثت القدرة على الذبح .. بل إنها تجريها دون أن تفكر فى تخفيف آلام الذبح عن البنت .. وتترك دمها يسيل كأنه ينهال من قربة مثقوبة ممزقة .. إلى أن تعود وتغطى الثقب بخيوط ثقيلة كأنها تحيك ثوبا ممزقا ..

وإن كانوا أحيانا يلجأون إلى بعض المخدرات المحلية السوقية رحمة بالبنت .. وبعد ذلك تعيش البنت صماء جنسيا.. والرجل مطمئن لأنه جعل المرأة لا تحس بحاجتها الجنسية إلى الرجل ، فلن تخونه ولن تخدعه .. وهذا هراء .. إن المرأة فى حاجة إلى رجل حتى بعد أن نقتل فيها إحساسها الجنسى .. حاجة الحياة التى فرضها الله على لقاء الرجل بالمرأة .. ولذلك فالمرأة السودانية لم تفقد إحساسها بالرجل .. وحاجتها إلى الرجل .. لم تفقد قدرتها على الحب .. حتى بعد ذبح الرجل خلية إحساسها .. ثم بعد أن تتزوج المرأة وتحمل .. إنها فى حاجة إلى عملية أخرى شاذة .. عملية تمزيق لحمها مرة أخرى حتى يتسع عنها ممر يمر منه الوليد إلى الحياة .. إنها جريمة ..

واستوعبت ميرفت أدق تفاصيل عملية الختان .. وكانت خدوم تحكى لها وهى تبدو كأنها تهم بالبكاء حزنا على

المصيبة التى تحل ببنات السودان .. إن البنات أصبحن يعترفن بأنها جريمة .. وكثيرون فى السودان ينادون بالغاء عملية الختان .. ولكن السودانى عنيد .. إنه يرفض أن يخرج عما كتب عليه وعلى أهله ذكورا وإناثا .. إنه لا يرفض ولكنه يخاف ..

وقرر ت ميرفت ألا تعرض نفسها لعملية الختان مهما ألح حسن .. ومهما بلغ حبها له وحرصها بكل خلجاتها على إسعاده .. إن الحب لا يعطى للرجل حق ذبح حبيبته .. وسعادة الرجل لا يمكن أن تقوم على سلب المرأة من كيانها كإنسانة وعلى تعذيبها .

ولكنها لم تتكلم .. ظلت صامتة .. ومر يومان .. وفى لحظة من اللحظات التى يحلقان خلالها فوق قمة السعادة .. قال حسن وهو يحتضنها أكثر :

– أمى تسأل عن موعد الختان حتى تتصل بالقابلة .

ورفعت رأسها من فوق صدره ونظرت إليه فى عينيه قائلة :

– هل أنت مقتنع فعلا بأن أجرى هذه العملية أم أنها حماتى التى تلح عليك وتحاول أن ترضيها ؟

وقال حسن فى إصرار :

– إنى مقتنع اقتناعى باستكمال مطالب الحياة .. وأنا الذى طلبت من أمى أن تعد لنا ما نحتاجه ليتم الختان ..

وقالت ميرفت وهى تبتعد عنه أكثر :

– ولكنى أخاف هذه العملية .. حتى لو عشت بعدها سليمة فسأعيش وقد فقدت شخصيتى وأصبحت شخصية أخرى لا أريدها .

وقال حسن فى حدة :

– أنا الذى سيفقد شخصيته إذا لم تتختنى .. كيف أجلس بين الرجال وكل زوجاتهم مختنات وأنا وحدى الزوج الشاذ الذى قبل أن يعيش مع زوجة شاذة ليست مختنة .. وكل أصدقائى الذين تزوجوا من مصريات تختنت زوجاتهم حتى يعشن الحياة الزوجية الطبيعية مرضاة لأزواجهن .. وحتى لو كنت انجليزية أو فرنسية لطلبت منك إجراء العملية .. إنى أحس معك حتى اليوم بأنى زوج محروم .. محروم من زوجة أطمئن إلى أنها تحترم الحياة الزوجية .. وتعطينى أكثر .. تعطينى منتهى المتعة وهى بين أحضانى .. الشخصية التى لا تريدينها هى شخصية الزوجة المصرية فى حين أنك أصبحت زوجة سودانية .

وسكتت ميرفت فى يأس .. إنها لن تستطيع أن تقنع حسن .. وطغت غليها سحابة من السخط عقدت ما بين حاجبيها .. ثم قالت وهى لا تنظر إليه :

– إنى مطمئنة إلى أمك وأعتز بها ولكنى لا أستطيع أن أستغنى عن أمى .. وسأكتب لها ..

وقال وحدته تشتد :

– وإذا رفضت أمك ؟..

قالت وهى تتنهد فى سخط :

– سأتركها لك وتقرران ما تشاءان .. وأنا مستسلمة لمصيرى.

وقال وهو يحاول أن يخفف من حدته :

– إنه ليس مصيرا .. إنه الحب .. ألا تحبيننى ..

وقالت ساهمة كأنها تحادث نفسها :

– إن حبك هو مصيرى .. ومنذ التقينا ونحن نعيش ما يكتبه الحب من مصير ..

وربت على كتفيها كأنه يشفق عليها وقال فى صوت حنون .

– إننا نعيش الحب مهما كان المصير .. نامى .. تصبحى على خير ..

وأدار لها ظهره لينام .. وهى لا تستطيع النوم .. إن السخط يسرى فى كل أعصابها حتى بدأت تحس بالسخط على كل ما عاشته فى السودان .. السخط حتى على ما كانت تفرح به.. ووجدت نفسها بلا تعمد تبحلق فى كفيها المغطيين بالحناء ثم تفركهما أحدهما بالآخر كأنها تريد أن تزيل هذه الحناء .. ثم اخفت كفيها تحت الغطاء .. لا تريد أن تراهما وهما غارقتان فى الحنة .. وظلت ساهمة .. لا تنام ..

٤

لم تستطع ميرفت أن تتخلص من الخوف والحيرة والسخط والأحاسيس العنيفة التى تلازمها منذ طلب منها حسن إجراء عملية الختان .. إن حسن دون أن يقصد بدأ يشعرها بأنها غريبة فى بلد غريب .. كل شىء فيها يجب أن يتغير حتى تحس بأنها فى بلدها وبين عائلتها .. حتى لونها .. لقد مرت عليها لحظات تخيلت فيها أنها تستطيع أن تصبغ شعرها وتدهن وجهها بلون البلد حتى لاتحس بالفارق بينها وبين بنات البلد .. رغم أنها شاهدت فى المرات القليلة التى خرجت فيها إلى الأسواق كثيرات من النساء البيض والشقراوات .. ولكنهن لبنانيات أو سوريات أو خواجات ويعشن فى الخرطوم كغريبات لهن حياتهن الخاصة ومجتمعهن الخاص .. أما هى فهى سودانية أو تريد أن تكون سودانية ولا تحتمل أن تعيش كغريبة .. كل شىء فيها يجب أن يتغير حتى أن حسن قال لها مرة ضاحكا أنه يتمنى أن يتغير اسمها .. إن اسم ميرفت يبدو غريبا فى السودان .. وليكن اسمها « ست البنات » أو سلوى أو زينب أو سعيدة .. وكانت مجرد نكتة يضحك لها حسن ولكنها

لا شك نكتة تنطلق من إحساس كامل داخل نفسه..

وهى تعيش أبعد تقاليد المحافظة .. إنها لا تخرج من البيت إلا بإذنه .. وليس من حقها أن تخرج وحدها .. إما أن تخرج معه وإما مع فيلق من آنسات وسيدات العائلة .. ولا تستطيع أن تستقبل أحدا فى البيت حتى ابن عمها ياسر إلا باذن زوجها وفى وجوده .. وحتى استقبال السيدات لا تستطيع أن تستقبلهن وحدها يجب أن يشاركها كل نساء العائلة .. إنها لا تستطيع أن تكون وحدها أبدا إلا مع أمه أو مع أخواته البنات، ولم تكن ترتاح أبدا إلا عندما تنفرد فى جلستها بخدوم .

وقد خرجت عدة مرات إلى الأسواق .. كان أحيانا يصحبها ومعهما أخته الكبيرة سارة وخدوم .. ويسير يتقدمهن بعدة خطوات وهو فى جلبابه الأبيض الواسع وعمامته البيضاء التى يلفها حول رأسه .. وكانت تعجب به وهو فى الجلباب .. إنه أكثر أناقة ، ورجولته مثيرة .. ولكنها عادت تتمنى أن تراه وهو فى حلة أفرنجية .. تراه كما أحبته .. وكان يتقدمهن حتى عندما يدخلن الدكان ويشترك فى كل شىء حتى فى انتقاء النوع واللون .. وكانت ترتاح دائما إلى ذوقه فى الاختيار وإن كانت قد بدأت أخيرا تضجر من تدخله فى كل شىء .. ليست هذه مهمة الرجل .. وكانت تتعجب من أسواق الخرطوم .. إنها تجد فيها كل شىء ولكن الأسعار أغلى أضعافا من الأسعار فى مصر .. رغم أنها كانت تشكو من أسعار مصر .. والنقاش فى كل دكان يستمر ساعات .. إنهم فى السودان نساء ورجالا من مدمنى المناقشات ..

وقد بدأت منذ اليوم الأول لوصولها إلى الخرطوم تعد لنفسها « توبا » من التوب الرسمى والشعبى للمرأة فى السودان .. إنه أقرب إلى السارى الهندى ولكنه لا شك يبرز قوام المرأة ورشاقتها .. ورغم أن « التوب » بدأ يختفى من شوارع السودان وبدأت البنات والنساء يقبلن على ارتداء الأزياء العادية ربما لغلو سعر قماش التوب ولأنه يقيد حركة المرأة خصوصا المرأة العاملة ويكتفى بابراز أنوثتها إلا أن ميرفت كانت تحبه وتتمنى أن تتباهى به من قبل أن تصل إلى الخرطوم .. وقد تعمدت أن تختار « التوب » من اللون الغامق.. كحلى .. أزرق غامق .. بل تمنت أن يكون أسود فى لون الملاءة اللف المصرية ، حتى يتناسب مع لون بشرتها الأبيض الزاعق.. فى حين أن نساء السودان يفضلن اختياره من اللون الفاتح حتى ينعكس على لون بشرتهن الداكنة .. إن الملاءة اللف تناسبها أكثر .. وقد اكتشفت بعد قليل أنها لا ترتدى التوب لمجرد إعجابها به ولكن حسن يحرم عليها أن تخرج من البيت بالتوب العادى الذى تعودت عليه .. لا يصح .. عيب .. إنه يعتبره خروجا على تقاليد السودان .. وخصوصا أن عائلته ليست فقيرة ولا محتاجة حتى توفر الثمن الغالى الذى يتكلفه « التوب » ..

وكانت ميرفت قد بدأت تشكو الملل والزهق لحسن .. إنها لم تعد تطيق وحدتها داخل البيت وقد بدأت تمل جلساتها مع سيدات وآنسات العائلة .. بل بدأت تمل محاولاتها التأقلم مع تفاصيل الحياة فى البيت السودانى .. بل بدأت تمل وقفتها فى

المطبخ وفرحتها بالشطة ، وبدأت تضيق من أن حبيبها يتركها وحدها طول النهار ومعظم الليل رغم إلحاحها عليه أن يغير مما تعود عليه .. ولعل حسن أراد أن يخفف من وحدتها فصحبها مرة مع فيلق من نساء العائلة إلى حدائق الجزيرة التى تطل على لقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق .. إنها حدائق رائعة تطلق الإحساس بالجمال الذى يقيمه الله للإنسان ..

وكما هى العادة كان يسير وحده بجلبابه وعمامته يتقدمهن عشرات الخطوات .. ولكن ميرفت تجرأت على هذه التقاليد وخطت خطوات سريعة كأنها تجرى تاركة وراءها بقية النساء إلى أن لحقت به وسارت بجانبه .. وقالت ضاحكة :

– إننا نسير فى حديقة .. فلماذا لا تسير بجانبنا حتى تشترك معا فى متعة التنزه .. ونزيد من جمال الحديقة بجمال الكلام ..

واغتصب حسن ابتسامة من بين شفتيه وهو يتلفت حواليه كأنه يخشى أن يرى أحد زوجته وهى تسير ملتصقة به .. ثم قال من خلال ابتسامته :

– إن الرجال فى السودان أكثر احتراما واعتزازا بالمرأة .. إن الرجل يسبق المرأة ويسير أمامها كأنه يفسح لها الطريق ويصد عنها أى اعتداء قبل أن يصل إليها .. ولو هجم علينا الآن أسد أو نمر فسيأكلنى قبل أن يأكلك ..

وقالت ميرفت وهى تضحك ساخرة :

– إن الرجل إذا أراد أن يحمى المرأة فيجب أن يسير خلفها لا أمامها .. حتى يستطيع أن يصد عنها أى اعتداء يأتيها من

الخلف وفى الوقت نفسه يرى الاعتداء الذى يقبل عليها من الأمام فيهرع إلى صده عنها .. إنكم تذكروننى بالأغوات الذين كانوا يسيرون أيام زمان أمام الأميرات لا لحمايتهن ولكن لمجرد اتساع الطريق .. وإن كنتم أنتم فى السودان شيئا آخر .. إن الرجل يسير أمام المرأة ليثبت ترفعه وزهوه .. إنه السيد الذى يتقدم الصفوف ومن خلفه الاتباع الذين يملكهم .. خلفه الحريم الذى اشتراه من سوق الرقيق ..

ونظر إليها حسن نظرة غاضبة وقال :

– ليس هذا وقت هذا الكلام ..

ثم أوسع من خطاه حتى ابتعد عنها وتركها تعود إلى صفوف الحريم ..

ولم تتمتع ميرفت بالحدائق الرائعة .. لقد جلسوا متراصين على مائدة فى المقهى المقام هناك .. وهن مشدودات صامتات كأنهن فى زيارة رسمية يؤدين واجبا ثقيلا .. وحسن جالس فى هيئة رسمية وكل ما يحرص عليه هو تقديم أرقى ما فى المقهى لترضية الحريم .. حتى الكلمة الحلوة لا يستطيع أن يهمس بها فى أذن ميرفت بوحى من جمال الحديقة .. حتى الكلمة الحلوة لا تقال إلا فى البيت وهما فوق الفراش ..

وقد كانا فى إحدى هذه اللحظات التى تطير بهما السعادة من فوق الفراش عندما قال حسن :

– أليس هناك خبر تفرحيننى به ..

وقالت ضاحكة :

– ماذا يفرحك أكثر لأقوله لك ؟..

قال من خلال ابتسامته :

- أكثر ما يفرحنى هو خبر وصول ولى العهد ..

وقالت ضاحكة :

- إن ولى عهدك لم يحدد بعد موعد وصوله ..

وقال وقد اختفت ابتسامته داخل دهشته :

- لماذا .. ماذا بك أو ماذا بى ؟..

وقالت ضاحكة :

- لا بك ولا بى .. ولكنى اتفقت معه على أن نؤجل تشريفه لنا ..

ونظر إليها حائرا وعيناه ترتعشان كأنه ينتظر خبرا مفزعا ثم ضغط على أعصابه وافتعل ابتسامة وقال :

-ليس من حقك الاتفاق معه .. الاتفاق معى أنا .. ولكن ماذا تعنين ؟..

وقالت وهى تبتسم فى خفر :

- لقد قررت منذ البداية أن أؤجل .. أريد أولا أن أعيش السودان وأرى كل شىء قبل أن تشغلنى الأمومة .. إننى سأنجب ابنا سودانيا ويجب أولا أن تكون أمه سودانية ..

ونظر إليها حسن فى ذهول ثم صاح :

- ما هذا الكلام الفارغ .. إن المرأة لا تتزوج لتقوم برحلة سياحية أو دراسية .. إن المرأة تتزوج لتنجب .. لماذا لم تسألينى قبل أن تتخذى هذا القرار ..

وقالت وهى تحاول أن تحتفظ بابتسامتها :

- إنك لم تسألنى حتى أقول لك ..

وصاح غاضبا :

- أسألك عن ماذا .. إنه أمر لا يحتاج إلى سؤال .. المفروض أن تنجبى ، وهى مصيبة إذا لم تنجبى .. هل فعلت كما تفعلن فى مصر وتناولت حبوب منع الحمل ؟ ..

وقالت فى صوت خافت :

- فعـــلا ..

وصاح حسن فى حدة على غير طبيعته :

- أنا لا أسمح لك بأن تقتلى أبنائى .. إنكم فى مصر تضيقون بأنفسكم وترفضون نعمة الله عليكم فتقتلون بذور خلقه .. أما هنا فى السودان فنحن نحمد الله على خلقه ونفرح ونزهو بما يرزقنا من أبناء .. السودان أرض كريمة على أبنائها أما أرض مصر فهى أرض بخيلة لا تفرح بأبنائها ولكن الأبناء يفرضون أنفسهم عليها فرضا .. أين هذه السموم التى تقتلين بها أبنائى ؟

وأخذ يتحرك داخل الغرفة كالمجنون يفتح كل الأدراج إلى أن وجد فى درج بجانب الفراش زجاجة دواء اعتقد أنها تحوى حبوب منع الحمل ، ورفعها فى يده وألقى بها من الشباك بكل ما فى ذراعه من قوة وهو يصيح :

- لا أسمح بأن تكون فى بيتى مثل هذه السموم ولا فى جوف زوجتى ..

وظلت ميرفت ساكتة بينما حسن ينهج أنفاسه كأنه يطلق حمم بركان .. ثم هدأ قليلا وقالت ميرفت :

- اسمع يا حسن .. لقد تزوجتنى وأنت تعلم أن لى

شخصيتى ولى رأيى الخاص .. وقد تعودنا أن نتناقش .

وقاطعها حسن صارخا :

– إنى منذ تزوجنا تنازلت عن الوصول إلى تفاهم معك .. وكنت أحتمل فى انتظار أن نبدأ حياة أكثر استقرارا بعد أن تلدى .. حتى عندما طلبت منك الختان لم أصدقك عندما قلت أنك ستسألين أمك .. كنت أعلم أنك ترفضين ورغم ذلك احتملت فى سبيل أن تلدى لى .. والآن .. لا ختان ولا ولادة ..

وقالت ميرفت وهى تحاول أن تكون هادئة :

– إنه نفس السبب الذى جعلنى أؤجل الحمل .. إذا كنت سأجرى عملية الختان فلا يمكن أن ألد قبل العملية .. وإلا فيجب أن أنتظر إلى أن أتأكد من أنى لن أجرى هذه العملية ..

وكانت ميرفت قد أرسلت إلى أمها تسألها عن عملية الختان وردت عليها أمها تحذرها من إجراء هذه العملية وتستحلفها أن تنتظر إلى أن تأتى إليها وتحل المشكلة مع حسن ..

وقال حسن وهو يلوى شفتيه فى قرف :

– إن أمك وعدت أن تأتى إلينا من أجل الختان .. ولم تقل متى تأتى ولا أعتقد أنها ستأتى أبدا .. أى أنك لن تلدى أبدا ..

وقالت ميرفت وهى تحاول أن تبتسم :

– إنها فى انتظار إجازة المدارس وإمكان أن يأتى معها بابا .

وقال حسن وهو يدير لها ظهره كأنه لم يعد يطيقها :

– تنازلت عن مطالبتك بالختان .. وفى انتظار أن تلدى لى .

وقالت ميرفت وكأنها تتوسل إليه :

– افهمنى يا حسن .. إنى قبل أن أبدأ فى تربية طفلى الذى

الده أريد أن أربى نفسى كامرأة تستطيع أن تكون أما سودانية صالحة قادرة ..

والتفت إليها وقد عادت الثورة الغاضبة تكسو وجهه :

– إن طفلك هو الذى سيربيك كأم .. إن الأمومة كالحب لا تحتاج إلى دراسة ولكنها تعيش الواقع بشخصيتها وذكائها.. واسمعى .. سأتكلم بصراحة .. إنك إلى الآن حائرة فى زواجنا .. لم تستكملى اعترافك بى كزوج .. إن المرأة لا تعترف بزوجها إلا بعد أن تجعل منه أبا لأولادها .. وأكثر من ذلك .. إن حيرتك أصبحت تشهيرا بى ومرمطة لى بين الناس .. كيف أواجه الناس بعد أن تزوجت ولم أنجب .. هل أقف خطيبا بينهم قائلا .. يا حضرات السادة .. اعذرونى .. إنى رجل كامل ولكن زوجتى تتناول حبوب منع الحمل .. وكلمة أخيرة .. إنى أنا أيضا لن أستكمل اعترافى بك كزوجة إلا إذا أصبحت أما لأولادى ..

وتركها دون أن يلتفت إليها وخرج من الغرفة وانقضى الليل كله ولم يعد إليها ..

وميرفت جالسة مكومة فوق الفراش وهى تائهة .. وتفيق من عقلها التائه لتجد دموعها تنهمر فوق وجنتيها فتبكى أكثر كأنها تتناول دواء من قطرات دموعها .. إنها تحب حسن .. ولكنه جعلها لا تعيش الحب إلا فى ساعات الفراش وهى بين أحضانه .. ثم بعد ذلك تحس أنه تركها فى عالم وابتعد عنها ليعيش فى عالم آخر .. وهى تحاول أن تنتقل معه إلى هذا العالم الآخر .. وهى تحتمل كثيرا .. تحتمل المجتمع المقفول ..

وتحتمل العقليات النسائية التى لم تعشها أبدا ، تحس بها غريبة عنها .. وتحتمل .. وتحتمل .. ولكن هناك ما لا تستطيع أن تقنع نفسها باحتماله .. إنها لا تحتمل فكرة عملية الختان .. ولا تحتمل مطالبته بأن تلد فورا .. إنها لن تلد إلا بعد أن يتغير كل شيء فيها حتى أحاسيسها .. لن تلد إلا بعد أن تنسى ميرفت التى كانت تعيش فى مصر وتصبح ميرفت التى تعيش فى السودان .. تعيش بفكرها واقتناعها وأحاسيسها ..

وقد جاء الصباح ودموعها لم تجف .. وهى متعبة تتألم وكأنها مريضة .. أعصابها تؤلمها .. وأرسلت تدعو صديقتها خدوم كأنها تستغيث بها .. وحكت لخدوم كل شيء .. وخدوم مذهولة .. إنها لا تصدق أن هناك زوجة لا تريد أن تلد أو تؤجل أن تحمل أو تلد .. إن الزوجة لا تنتظر من زوجها منذ أن يلمسها أول لمسة إلا أن يجعلها أما .. ليس هناك دافع للزواج إلا أن تصبح الزوجة أما أو الزوج أبا .. وحبوب منع الحمل تعتبر فى السودان حراما ورجسا من عمل الشيطان .. بل تعتبر كل من تتناولها كأنها مجنونة شاذة والزوج الذى يسمح لزوجته بتناولها يعتبر مجنونا شاذا فاسقا يبيح المعاشرة بلا هدف يستجيب لإرادة الله .. وكل زوجة فى السودان تتفاخر بالانجاب وتتفاخر أكثر كلما أنجبت أكثر .. إن الحاج جعفر رمضان أنجب أربعة عشر بين أولاد وبنات ومن زوجة واحدة .. وهو يغالى فى تباهيه كأنه سبع البرمبة .. وزوجته تتباهى أكثر ، حتى أصبحت كأنها شيخة من أولياء الله تتبارك البنات بها قبل أن يتزوجن ليرزقهن الله من الأبناء

كما رزقها .. أما الزوجة المسكينة التى حرمها الله من القدرة على الإنجاب فقد تنتحر أو تعترف مستسلمة بحق زوجها فى الزواج من أخرى مهما مزقتها الغيرة ..

وخدوم تحكى لميرفت حكايات وتحاول أن تقنعها .. إنهم فى جنوب السودان يغالون أكثر فى الإنجاب .. إن إحدى القبائل فى أقاصى الجنوب تقيم فى الليالى النصف قمرية أى قبل أن يكتمل القمر .. ليلة تسمى « ليلة الإكثار » .. فيحفرون وسط الغابة حفرة واسعة كبيرة ويمهدونها ويساوون أرضها .. وفى الوقت المحدد تدق الطبول .. وإذا ببنات القبيلة البالغات يلقين بأنفسهن داخل الحفرة وهن عرايا ، ثم يلحق بهن الشبان ويلقون بأنفسهم وراءهن وهم عرايا أيضا .. ثم يأخذ كل شاب الفتاة التى تقع عليها يداه ويمارس معها الجنس.. وليس فى هذا ما يعتبر لدى القبيلة انحلالا أو انهيارا اجتماعيا .. والبنت والولد يظل كل منهما محتفظا بكرامته بعد هذه الليلة .. إنها ليلة مقصود بها زيادة النسل ليزداد تعداد أفراد القبيلة وتزداد قوة مكانتها بين القبائل .. والآباء الذين يلقون ببناتهم فى ليلة التكاثر يتمنون أن تلد البنت بعد ذلك بنتا.. لأن البنت أفضل على العائلة من الأولاد .. تحقق دخلا أكبر .. فالبنت عندما تتزوج بعد ذلك يدفع مهرها بعدد من الأبقار مما يزيد من ثراء العائلة ومكانتها ..

وحكايات كثيرة حكتها خدوم محاولة اقناع ميرفت وتسليتها .. ولكن ميرفت لم تقتنع .. إنها لا تزال مصرة على ألا تنجب إلا بعد أن تصبح سودانية ..

ودخل حسن إليها فى الليلة التالية .. دخل وهو جاد واجم كأنه جاء يؤدى واجبا رسميا .. ونظرت إليه ميرفت حائرة خائفة .. ماذا سيفعل بها هذه الليلة .. ولكنهما فى لحظات نسى مشاكله ونسيت مشاكلها وارتفعا إلى قمة الحب .

وكانت ميرفت قد تناولت حبة من حبوب منع الحمل كعادتها .. فلم تكن الزجاجة التى ألقى بها حسن هى كل ما لديها ..

●●●

والمشاكل لا تنتهى ..

إلى أن جدت المشكلة الأكبر ..

٥

كان ياسر منذ سافر إلى السودان مع ميرفت قد استطاع أن يتأقلم بسرعة مع التقاليد والعادات التى أحاطت به .. كان يبقى وحده طويلا فى الغرفة التى خصصت له فى بيت الضيافة ، أو يشد مقعدا ويجلس مطلا على الفناء الواسع إلى أن يمر عليه حسن ويبدأ معه حياة اليوم كله نهارا وليلا ..

وربما لم يخطر على بال حسن أن زوجته ميرفت فى حاجة لأن ترى ابن عمها أو أن ابن عمها فى شوق لأن يراها .. لذلك مرت أيام دون أن يلتقى أحدهما بالآخر إلى أن قالت ميرفت لحسن أنها تريد أن ترى ابن عمها وربما دهش حسن .. ما حاجة المرأة لأن ترى رجلا غير زوجها حتى لو كان ابن عمها أو من أفراد العائلة .. إنه هو نفسه لا يحس بحاجته إلى رؤية أخواته البنات ويكفيه أنه مطمئن عليهن .. ورغم ذلك فقد ابتسم حسن وقال :

– حالا سترينه ..

ربما لأنه يحب زوجته ويحب أيضا ياسر منذ أن أصبحا صديقين ..

وخرج من البيت إلى غرفـة حسن وعاد به إلى الصالة التى تجاور الغرفة المخصصـة له هو وزوجته ونادى على ميرفت .. وجاءت .. وفـرحت فرحة منطلقـة عندما رأت ياسـر وانحدفت عليـه تقـبله .. وتعقـد وجـه حـسن وتنحنح عـدة مرات كـأنه يحذرها مـن التمادى فى هذه القـبلات .. وجلسـوا وقد تعـمد حـسن أن يجلس بينهـمـا .. إن ياسر ليس أخ مـيـرفت وليس محرمـا عليها .. إنه ابن العم .. ويجب أن يراعى التـقاليد .. ثم انطلق الحـديث بينهم حلوا مـرحا يسـوده الحب حتى تخـفف حسن من تحفظه وتزمته وعـاد إلى جو الألفة الذى كان يجمع الثلاثة فى مصر ..

وتعددت لقاءات ياسر ومـيرفت بعد ذلك .. ولا يتم اللقاء إلا بأمـر حـسن ووجود حـسن .. وحـسن قـد أصـبح يحب هذه الجلسات التى تجمعهم الثلاثة .. بل إنه تخفف إلى حد أنه كان أحيانا يترك زوجته مع ابن عمها ويخرج هو لمجالسة والده ..

وفى أحـد هذه اللقاءات شـدت ميـرفت صـديقتـها خـدوم لتعرفها بابن عمها .. ولم يعترض حسن عندما وجد ابنة خالته خدوم تدخل عليه مع ميـرفت وهو جالس مع ياسر .. إن الألفة العائلية أصبحت واقعية فى أحاسيس حسن .. وأحست ميرفت بعد فترة أنه حدث تجـاوب سريع بين خدوم وياسر .. إن كلا منهمـا ينظر إلى الآخر كأنه كـان يبحث عنه .. وإن كـانت كلها نظرات مخـتلسة .. وخـدوم بخفـة دمها وجـرأتها وانطلاقـهـا وتطور شخـصيتـها إلى أبعد مما وصلت إليـه شخصـية باقى بنات العـائلة ، كـانت كـأنهـا تحيـى الجلسـة .. تتكلم وتحكى

الحكايات وتثير الضحكات ولا تكف عن الأسئلة .. لقد أصبحت هذه الجلسة العائلية لا تستطيع أن تستغنى عن خدوم .. أصبح الثـلاثة أربعة .. ومـيرفت تحس بالتـجاوب يشـتد بين خـدوم وياسر .. هل أحبها ياسر .. هل أحبته خدوم .. لا تعرف .. وإن كانت خدوم لا تكف عن التحدث مـعها عن ياسر والسؤال عنه وعن كل شىء فـيـه وحـوله كـأنهـا تعد تـقريرا عـنه تقنع به قلبهـا .. وياسر عندما يأتى يتلفت حـواليه بلهفة فـإذا لم يجد خدوم صاح صيحة هامسة :

– أين هى ؟..

وقالت له ميرفت فى إحدى هذه المرات :

– إنك لن ترى خدوم اليوم ..

وقال ياسر كأنه صدم :

– لمـــاذا ؟..

وقالت ميرفت ضاحكة :

– إننا نعاقبك .. لقد مضى أسبوعان ولم تأت ولم نرك ..

وقال ياسر :

– إنى مظلوم .. السـودان يظلمنى وينـهكنى .. وأنا أعـتمـد على خدوم لتنقذنى ..

وضـحكت ميـرفت ثم فـتحت البـاب ودخلت خـدوم وهلل ياسر.. ولم يكن حسن قد وصل بعد ..

وقد كان ياسـر ينهك نفسه فعلا وراء مشـروعه الذى جاء من أجله إلى السودان .. مشـروع زراعة الأرض .. وكان حسن يبذل كل جهـده ويقدم كل امكانياته لمساعـدته .. قدمه إلى كل

الشخصيات الهامة فى الحكومة .. وإلى أهم أصحاب الأراضى .. إن فى السودان من يملك آلاف الأفدنة من الأرض.. بل إن حسن أعد له رحلتين إلى شرق وغرب السودان ليدرس طبيعة الأرض فى كل مكان .. وكان ياسر جادا طموحا متفائلا .. ولكن الصعاب تتراكم أمامه .. لقد عرض عليه أن يعمل خبيرا ومستشارا زراعيا فى الحكومة .. ولكنه لم يأت إلى السودان ليكون موظف حكومة ، وهو يعلم أن مستشارى الحكومة لا يستشارون والأوراق التى يكتبونها لا تقرأ .. سواء كان مستشارا فى حكومة السودان .. أو فى حكومة مصر .. وقد فكر فى أن يعتمد على كبار أصحاب الأرض فى السودان.. إنهم متحمسون تضج فى صدورهم الأمنيات ولكنهم لا يملكون رؤوس الأموال التى تكفى لتنفيذ مشروع كمشروعه .. حتى الحكومة لا تملك رأس المال الذى يكفيه .. لماذا لا تقوم الحكومة بتكوين شركة تساهم فيها الدول العربية البترولية بمبالغ ضخمة تكفى لتحقيق مشروعه وآماله .. ربما كان الأجدى أن يحاول إقامة شركة خاصة تساهم فيها الشركات الأجنبية الزراعية بعد الاتفاق مع حكومة السودان .. إنه واثق أن زراعة أرض السودان تغرى أى شركة أجنبية ..

وهو تائه فى أفكاره وخواطره ولا يكف عن الاستقصاء والمناقشات بل إنه بدأ يدرس كل ميزانية حكومة السودان حتى يستطيع أن يقدر كل ما يحلم به ..

وكان ياسر بعد أن قضى شهرا فى بيت العائلة .. عائلة بابكر الفكى .. استطاع أن يقنع حسن بأن يسمح له بالانتقال

للاقامة فى الفندق حتى يسهل عليه الاتصال بالتليفون والتلكس وحتى يستقبل معارفه وأصدقاءه الذين تكاثروا دون أن يزعج العائلة .. ووافق حسن وإن كان والده الحاج بابكر أصر إذا صمم ياسر على الإقامة فى الفندق أن يظل مقيما فى ضيافته .. ولم تتغير حياة ياسر بعد أن انتقل إلى الفندق .. لم يبتعد عن حسن أو عن العائلة .. فى كل صباح يذهب إليه حسن ويتفقان على برنامج اليوم .. وفى أغلب الأمسيات يذهب هو إلى بيت العائلة ليجلس فى ونسة الوالد التى تجمع الشخصيات الرجالية .. ثم قد يدعوه حسن لجلسة العائلة التى تجمع بينه وبين ابنة العم وخدوم ابنة الخالة ..

وفى يوم طلبت ميرفت من خدوم فى توسل ورجاء أن تحادث ياسر بالتليفون وتطلب منه أن يأتى لزيارتها بعد أن كان قد غاب عنها طويلا .. وسألتها :

– هل تستطيعين أن تحادثيه بالتليفون ؟..

وقالت خدوم وهى تدير وجهها عن ميرفت وعيناها ترتخيان فى خفر كأنها قررت أن تدلى باعتراف خطير :

– إنى أحادثه كل يوم بالتليفون ..

واتسعت عينا ميرفت من الدهشة الغارقة فى الفرحة .. لقد اكتمل الحب بين ياسر وخدوم .. وإن كان لم يصل إلى أكثر من تبادل أحاديث التليفون .. وقالت ضاحكة :

– لعله لهذا لم يعد فى حاجة إلى زيارتنا .

وقالت خدوم من خلال حيائها :

– إن حديث التليفون لا يغنى عن اللقاء ..

وخطت ميرفت واحتضنت خدوم إلى صدرها قائلة بعد أن إنهالت عليها بالقبلات :

– إنى فرحة .. ستكونين لابن عمى .. هل اتفقتما ؟

وقالت وهى تطلق زفرة حزينة :

– لم نتفق على شىء ..

وصاحت ميرفت من خلال فرحتها :

– لماذا .. ماذا تنتظران ؟..

وقالت خدوم كأنها تهم أن تبكى :

– ليس أمامنا شىء ننتظره ..

وعادت ميرفت تصيح :

– مستحيل .. إنى أعرف ابن عمى .. إنه يأخذ كل شىء من أوله إلى آخره حتى الحب .. وسيأخذك .. وسيتزوجك ..

وجرت خدوم من أمامها دون أن ترد عليها وقالت وهى تجرى :

– سأحادثه بالتليفون ..

واتسعت ابتسامة ميرفت وقد ملأ خيالها زواج ياسر وخدوم .. إن ابن عمها لم يقل لها شيئا عن التطور العاطفى بينه وبين خدوم .. لم يقل حتى أنه أصبح يتحادث معها بالتليفون .. ولن تسأله .. ستنتظر إلى أن يبدأ هو بمفاتحتها .. ولكن .. لا يستطيع أن يحدثها عن خدوم لأن زوجها حسن لا يتركهما وحدهما حتى يتحادثا حديثا خاصا .. ولن تسأله .. إن الحب يبقى بين اثنين ليس من حق أحد ثالث أن يتدخل فيه إلا إذا أراد الاثنان .. إنها هى أيضا لا تحادث ياسر عن حبها

لزوجها حسن ولا عن المشاكل التى يثيرها هذا الحب .. إنها هى وزوجها المسئولان عن الحب وعن حل كل مشاكله وتدخل أى طرف ثالث يفسد كل شىء .. يقضى على المشاكل بالقضاء على الحب .. ولا شك أن ياسر سيحكى لها كل شىء عندما يحتاج إليها .. وهو قطعا سيحتاج إليها لأنها أصبحت من العائلة السودانية التى يحتاج إليها حبه لخدوم ..

وكان قد مر حوالى ستة أشهر على إقامتها فى السودان عندما جاء ياسر فى هذا اليوم لزيارتها .. كان قد اتفق مع حسن على اللقاء فى بيته ولكنه تعمد أن يأتى قبل الموعد الذى يعلم أن حسن سيكون فيه بالبيت .. إنه يريد أن يختلى بابنة عمه ليقول لها سره ..

وقالت له ميرفت وهى فرحة به :

– إن خدوم لم تأت بعد ..

وقال فى صوت جاد :

– أعلم .. لقد طلبت منها أن تتأخر ..

وقالت من خلال فرحتها :

– إنكما تتحدثان فى التليفون .. ولم تكن تقول لى شيئا ولكن خدوم قالت لى ..

وقال فى صوته الجاد :

– لقد جئت لأقول لك كل شىء .. كنت أنتظر أن انتهى إلى قرار .. وقد قررت أن أطلبها ..

وفتحت الفرحة شفتى ميرفت حتى آخرها وقالت :

– تتزوجها .. الحقنى .. إنى أهم أن أزغرد ..

وقال وقد حلت على شفتيه ابتسامة تخفف من حيرته :
– لا أدرى .. هل أحببتها لأنى أحب السودان .. أم أحب السودان لأنى أحببتها ..
وقالت ميرفت وهى تطير بفرحتها :
– إنى أتمنى خدوم زوجة منذ بدأت ألمح فى عينيك وما فى عينيها واستنتجت أنه الحب .. إن خدوم رائعة كاملة ..
وقال ياسر وقد عادت إليه جديته :
– ولكنى لا أعرف كيف أبدأ الآن .. ماذا أفعل لأطلبها ..
واعتدلت ميرفت فى جلستها وقالت كأنها بدأت تتحمل المسئولية :
– على قدر ما عرفته وسمعته عن تقاليد السودان فإنك تبدأ بفتح الخشم .. وفتح الخشم معناها أن تشترى هدايا للعروس.. وبما أنك قادر فإنك تشترى أضخم فتح خشم .. أى أثنى عشر ثوبا للعروس .. واثنى عشر حذاء .. وأثنى عشر سوارا .. و .. و .. من كل شىء أثنى عشر .. ثم تحمل هذه الهدايا وتتقدم بها إلى والدها وتطلبها منه ..
وقال ياسر :
– هل أتقدم وأقدم الهدايا دون أن أتأكد أولا من موافقته .. مستحيل ..
وسرحت ميرفت برهة ثم قالت :
– لك حق .. سنسأل حسن أولا ليسأل والد خدوم .. إن حسن أقرب الناس هنا إليك .. وصديقك .. وسيفرح فرحتى ..
وقال لها ياسر وكأنه خائف من مواجهة حسن :

– اسأليه أنت .. ولكن لا تفاتحيه بالموضوع الآن وأمامى ..
وقالت ميرفت فى دهشة :
– لماذا أنت خائف إلى هذا الحد ؟..
وقال ياسر وهو يتنهد كأنه يواسى نفسه :
– ليس الأمر سهلا كما تتصورين .. إن خدوم نفسها تقول أن زواجنا مستحيل ..
وجاء حسن ولم يدهش عندما وجد ياسر مع زوجته وحدهما .. كان قد تخفف من تزمته إلى حد كبير .. وجلسا فى حديث ممتع كأنه حديث عائلى .. ولم تأت خدوم .. وعذرتها ميرفت لأنها لم تكتف بالتأخر عن الحضور بل لم تأت ليلتها ..
وانصرف ياسر .. وضم الفراش ميرفت وحسن .. وقالت له وهى تدلله وتمسح على صدره بأصابعها المحناة :
– هل تريد أن تسمع خبرا يفرحك ؟!
واتسعت ابتسامة حسن ولمعت عيناه .. إنه ينتظر أن يسمع خبرا بأنها قد أصبحت حاملا .. وضمها إلى صدره قائلا :
– أفرحينى يا حبيبتى ..
وقالت وهى تضم خدها إلى خده :
– إن ياسر سيطلب خدوم ..
وسكت حسن برهة كأنه يحاول أن يفهم ما سمعه ثم ابتعد عنها قليلا وقال :
– ماذا تعنين بأنه سيطلب خدوم ؟..
وقالت ميرفت من خلال ابتسامتها الفرحة :

– لقد قرر أن يطلبها للزواج .. سيتزوج ياسر خدوم ..

وقفز حسن منطورا من فوق السرير .. ووقف أمامها وعيناه تطقان بالنار وصاح :

– من الذى فكر فى إثارة هذه الفضيحة .. هل أنت التى سعيت لاقناع ابن عمك بالزواج من ابنة خالتى ؟..

وقالت ميرفت وهى دهشة بعد أن كانت تنتظر أن يفرح بالخبر :

– أنا لست خاطبة ولا سمسارة زواج .. أنت تعرف أنى أؤمن بأن الزواج يجب ألا يتم إلا على أساس الحب .. وقد أحب ياسر خدوم .. وهو الذى قرر أن يتزوجها .. وهو يريد أن يخطبها أولا منك ..

وصاح حسن وهو يرتعش كأنه جن :

– أحبها .. والله عال .. يدخل بيتى وينتهك عرضى ..

وصاحت ميرفت ردا على صيحته وقالت مقاطعة :

– إنه حب لم يتعد أنه رآها وأعجب بها إلى أن تطور الاعجاب إلى حب .. والحب يتطور تلقائيا إلى الزواج .. كحبنا .. لقد تزوجنا لأننا أحببنا .

وعاد حسن يصر :

– هل تعرفين ماذا يعنى تقدم غريب ليس من السودان للزواج من فتاة سودانية .. معناه أنه يعتدى على العائلة السودانية .. معناه أنه يحاول أن يحتل العائلة كما كان الاستعمار يحتل السودان .. معناه انتهاك شرف العائلة .. كيف

ترضى عائلة سودانية بأن تترك ابنتها تنام مع غريب حتى باسم الزواج ؟

وقالت وهى تنظر إليه فى غيظ :

– لقد تزوجتنى وأنت غريب عن مصر ..

وقال حسن صائحا :

– إن عائلتك كانت رافضة إلى أن هددت أنت بالهرب فاضطرت العائلة أن توافق رغما عنها وتحس كأنها نكبت وأهينت .. ولكن بنات السودان لا يهددن وليس من حقهن تحدى العائلة إلى حد تعريضها للنكبات والإهانات .. والبنت قبل أن تفكر فى الهرب تكون قد ذبحت .. وستذبح خدوم إذا خطر لها مثل هذا الخاطر ..

وقالت ميرفت وهى تغلى :

– هذا رأيك .. لم أكن أتصور أن تكون رجعيا أنانيا إلى هذا الحد ..

وقال حسن وهو ينظر إليها :

– إنه ليس رأيى .. إنها التقاليد والعرف فى السودان .. التقاليد التى تصون للسودان كرامته وتحتفظ للشعب بقوة شخصيته .. إن الرجل السودانى من حقه أن يستولى على أى بنت فى العالم .. طبعا باسم الزواج .. ولكن ليس من حق أى رجل فى العالم أن يستولى على أى بنت من بنات السودان .. وإلا كانت كارثة .. فضيحة .. وأسألى عن الفضيحة التى حدثت أخيرا .. لقد جنت الفنانة السودانية زروج وتزوجت

المخرج الفرنسى الذى كان يخرج لها الفيلم الذى كانت تقوم ببطولته .. فثار عليها السودان كله .. واضطرت أن تهرب قبل أن تذبح .. والله أعلم كيف تعيش الآن .. لعلها ستعود إلى السودان لتتبارك بأن تدفن فى أرضه بدلا من أن تحيا على أرضه ..

وقالت ميرفت فى تحد :

– لا أصدق .. إن كثيرا من الرجال المصريين تزوجوا من السودان .. ومن صديقات عائلتى السيدة زينب هانم المرعشلى ابنه المرحوم المرعشلى باشا .. إن أمها سودانية وهى كأمها تحتفظ بكل المظاهر السودانية .. سمراء سمرة غامقة .. كل السمار .. وهى تعتبر من أغنى سيدات مصر بما ورثته عن أبيها .. وهى محترمة محبوبة .. وأنا شخصيا أحبها .. وكنت أتردد عليها كثيرا وخصوصا بعد أن عرفتك .. كنت أحس كأنه أصبح يجمعنا النسب ..

وضحك حسن ضحكة عالية ساخرة وقال :

– كانت مثل هذه الزيجات تحدث أيام زمان .. أيام الاستعمار .. وكان الانجليز يستغلون المصريين فى السيطرة على كل السودان .. ولم يكن العسكرى المصرى أو الموظف المصرى الذى يقيم فى السودان يتزوج الفتاة السودانية ولكنه كان يستولى على أرض السودان وخيرات السودان .. حتى لو كان استيلاء باسم الزواج .. ونحن لا ننسى هذه الزيجات وكان معظمها يقع على بنات قبيلة الدنكا لأنهن كن معروفات

بأنهن من أجمل بنات السودان .. كما أن قبيلة الدنكا هى أكبر القبائل ، وكان الاستعمار يركز سيطرته عليها .. ولكن انتهى هذا العهد المرير .. أصبح السودان حرا ولن يستطيع أى غريب أن يستولى على بنت من بناته ..

وقالت ميرفت فى سخط :

– إنك تعيش بكل إحساسك وفكرك فى الماضى .. إن المصرى يتزوج الآن سودانية كما يتزوج فتاة هندية أو لبنانية أو أوربية .. لم يعد الآن فى السودان أو مصر ما يذكرنا بالاستعمار ، وكل ما يجمع بين السودانى والمصرى هو الاحساس بالوحدة .. الوحدة التى لا يحس بها نحو أى بلد عربى آخر والتى تفتح بينهما ما لا ينفتح بين كل منهما وأى بلد آخر ..

وضحك حسن ضحكة مرة وصاح مقاطعا :

– إن كلمة الوحدة التى يرددها المصريون هى الاسم الجديد للاستعمار الذى لا يستطيعون نسيانه .. استعمار السودان .. إن الوحدة كما يتصورونها هى أن تحكم مصر السودان .. والحمد لله .. لقد خفت شهوة الوحدة .. وتواضعت إلى أن أصبحت تحمل اسم التكامل ..

وأحست ميرفت بأنها لن تستطيع أن تسيطر على أعصابها أكثر وقالت فى حدة :

– دعنا من هذا الكلام .. المهم .. ماذا ستقول لابن عمى ؟..

وقال حسن صارخا :

– لن أقول له شيئا .. ولا أريده أن يقول لى شيئا .. ولا أدرى كيف أستطيع أن أحتمل مجرد وجوده بيننا بعد هذا.. بل إنى لا أستطيع أن أعذره وأعتبره ساذجا بريئا لأنه يجهل أصول العرف والتقاليد فى السودان .. ولكنى سأبلغ العائلة كلها بنياته حتى يأخذوا حذرهم منه .

وخطا نحو الباب وهو يضرب الأرض بقدميه .. وخرج من الغرفة .. ولم يعد .. كعادته كلما احتد بينهما النقاش .. أن يهجرها هجر الفراش ..

٦

تم كل شىء حالا وفى نفس اليوم وكأن عائلة بابكر قد اجتمعت واتخذت حكما بإعدام ياسر على أن ينفذ الحكم فورا ..

وكان ياسر جالسا فى الصباح فى شرفة الفندق فى انتظار أن يمر عليه حسن ليبدآ يومهما كما تعودا .. ولكن حسن تأخر.. وطال تأخره ..وقام يحاول أن يحادثه ليطمئن عليه .. لعله مريض .. فلم يستطع أن يصل إليه .. ولم يستطع أن يتقصى أخباره .. لقد ردوا عليه وهو يطلبه فى التليفون ردا باردا .. حسن ليس هنا .. ثم ألقوا بسماعة التليفون فى وجهه فورا ..

وظل جالسا فى الفندق لا يعمل شيئا .. فكل ما يعمله كل يوم كان يتم باتفاق مع حسن .. ولكنه كان جالسا فى انتظار أن تحادثه خدوم بالتليفون كعادتها .. لقد عودته على أن تحادثه كل يوم .. ولكنها لم تتصل به .. مر اليوم كله دون أن يسمع صوتها .

وميرفت ممزقة الأعصاب .. إنها لم تنم طول الليل .. وهى تعلم أنها لن ترى حسن إلا فى المساء .. وقد يفرض هجرته لها ليلة أخرى .. ولكنها كانت تطوف بالبيت تبحث عنه .. لعله كان

نائما فى غرفة أخرى .. وهى تريد أن تطمئن إلى ما سيفعله بعد أن علم بنية ياسر التقدم لطلب يد خدوم .. ولكنها لم تجده فى البيت .. خرج منذ الصباح الباكر .. ولاحظت إحساسا عجيبا بين أهل البيت .. كأن سحابة من القلق تطوف بهم .. بل أنهم يستقبلونها فى الصباح استقبالا تحس فيه كأنه ينبض بشىء جديد .. وعندما التقت برب العائلة الحاج بابكر استقبلها وقد أرخى عينيه عنها .. تحية الصباح بسرعة ثم ابتعد عنها .. هل أبلغهم حسن بحكاية ياسر وخدوم فغطتهم هذه السحابة .. إنها لا تدرى ..

وهى فى انتظار خدوم .. عندما تأتى فستخلو بها وتتفق معها على خطة يستطيعان بها تهدئة العائلة حتى إذا اضطرا إلى التنازل عن فكرة زواجها بياسر .. ومن يدرى ربما استطاعا أيضا أن يصلا إلى خطة لاقناع العائلة بهذا الزواج .. أو على الأقل الموافقة عليه حتى بلا اقناع .. كما استطاعت هى أن تصل إلى موافقة عائلتها على زواجها من حسن ..

ولكن خدوم لم تأت ..

ماذا جرى ؟!

وحاولت أن تتصل بها بالتليفون .. ولكنهم يقولون لها أنها ليست فى البيت ..

ماذا جرى ؟!

هل وصل الخبر إلى عائلة خدوم فمنعوها من الذهاب إلى بيت خالتها .. طبعا المقصود هو منعها من لقائها هى .. هى التى تسعى لزواجها من ياسر .. لعلهم حبسوا خدوم فى البيت

.. لعلهم أخذوها بعيدا عن الخرطوم وانتقلوا بها إلى بيتهم القديم فى أم درمان .. لا تدرى ماذا فعلوا بها .. إنها حائرة فى طبائع أهل هذا البلد ..

وفى المساء لم تعد تحتمل .. ورفعت سماعة التليفون تحادث ياسر فى الفندق دون أن يهمها من يسمعها من أفراد العائلة .. وإن لم يكن موجودا منهم أحد من الرجال .. وقالت له كل ما جرى من كلام بينها وبين زوجها حسن .. وكان ياسر يبدى دهشته ثم بدأ يعبر عن دهشته سخطا ثم قال ثائرا :

– لهذا لم يأت إلىّ هذا الصباح .. قولى له أنه إن لم يأت إلىّ صباح الغد .. فإنى مسافر إلى مصر ..

وقالت ميرفت :

– لا تقرر شيئا الآن دعنا نفكر معا ..

وقال وهو فى ثورته :

– لا .. إذا كانوا لا يريدوننى بينهم كواحد منهم فلن أبقى معهم ولن أشرف واحدا منهم بصداقتى ..

وانتهت المحادثة وميرفت أكثر انهيارا ..

لم يذهب حسن للقاء ياسر كعادته .. ولم تأت خدوم لزيارتها كعادتها .. كأن العائلة تطرد من بينها ابن عمها وتطردها معه ..

وتكومت ميرفت فوق فراشها ..

– إن كل شىء ينهار ..

لمجرد أن ابن عمها طلب الزواج من خدوم ..

لو كانت تعلم لما تزوجت حسن ..

إن بنات مصر لسن أقل من بنات السودان ..

ودخل عليها حسن بعد منتصف الليل وهى لا تزال مكومة لا تنام ولا تحاول أن تنام .. ورفعت إليه عينين غاضبتين وصاحت دون أن تقرئه التحية :

– لماذا لم تذهب إلى ابن عمى ؟..

وقال حسن فى هدوء :

– لم يكن هناك داع ..

وعادت تصيح :

– لماذا لم تأت خدوم اليوم إلى البيت كعادتها ؟

وقال وهو يبذل جهدا ليحتفظ بهدوئه :

– قدرى .. إنهم يريدون إبعادها حتى تهدأ المشكلة التى أثارها ياسر ..

وصاحت :

– تقصد إبعادها عنى ..

وقال ساخرا :

– أنت همزة الوصل فى كل ما حدث ..

ونطرت ميرفت نفسها من فوق الفراش وهى تصرخ :

– اسمع .. إذا لم تذهب إلى ياسر صباح الغد فسيترك ياسر الخرطوم ويعود إلى مصر .. وإذا لم تأت خدوم إلى البيت غدا فسألحق بياسر وقد أسافر معه ..

وقال حسن بلا مبالاة وقد بدأ يخلع جلبابه لينام :

– إنه حر .. وأنت حرة ..

ثم ألقى بنفسه وتمطى فوق الفراش .. إنه لم يهجرها هذه المرة .. هى التى هجرته .. وألقت وسادة وملاءة ونامت على الأرض ..

ولم يذهب حسن للقاء ياسر فى الصباح التالى ..

ولم تأت خدوم إلى ميرفت طوال اليوم ..

وكان ياسر قد انتهى من إعداد حقائبه .. إنه مصمم على السفر وهجرة السودان كله .. ولكنه رأى أنه من واجب الذوق واللياقة والأصل الطيب أن يذهب بنفسه لا للقاء حسن ولكن للقاء أبيه الحاج بابكر ليشكره على ضيافته له طوال هذه المدة .

ودخل ياسر على جلسة الرجال فى بيت الحاج بابكر وكانت مزدحمة كما هى العادة .. ولم ير بين الجالسين حسن ولكن الحاج بابكر كان متصدرا الجلسة .. وقام واقفا بمجرد أن رأى ياسر يدخل وهو ينظر بعينين صارمتين وظل واقفا إلى أن اقترب ياسر فمد له يدا باردة مصافحا ثم استدار قائلا :

– عن إذنك ..

وهم الحاج بابكر بالخروج من الجلسة كلها ولحق به ياسر قائلا فى همس :

– كنت أريدك فى كلمة ..

ونظر إليه الحاج بابكر بنظرته الصارمة وقال بصوت أقل صرامة :

– إنها كلمة لا أريد أن تقولها ولا أريد أن أسمعها .. عن إذنك ..

وقال ياسر بلهجة رسمية كأنه يردد كلمة عزاء :

– لقد جئت لأقول أنى مسافر وأنى أشكركم وأشكر العائلة كلها على ضيافتكم لى عسى أن أراكم فى مصر لأرد لكم الجميل .. سلام عليكم ..

ولانت نظرات الحاج بابكر فورا كأنه سقط فى مفاجأة أثارت حنانه وحبه لياسر وقال كأنه يتشبث به :

– لا لزوم للسفر ..

وقال ياسر وهو يبتعد :

– إنى مضطر إلى السفر .. ظروف عائلية .. سلام عليكم ..

وخرج ..

وسافر ..

●●●

ودخل حسن غرفة الزوجية وهو يبدو مهموما منهارا يجر قدميه فى خطوات بطيئة والحزن يكسو وجهه كأنه يهم أن يبكى .. وميرفت مكومة فوق السرير تنظر تائهة وكأنها كانت فى انتظاره .. وقالت بمجرد أن دخل حسن :

– لقد سافر ياسر ..

وقال فى صوت ضعيف منهار :

– لعل هذا كان الحل الوحيد ..

وقالت وهى تنظر بعينين ملتهبتين :

– سافر دون أن تكون فى وداعه ..

وقال فى صوت ضعيف وكأنه يحادث نفسه :

– إنك لا تعلمين مدى اعتزازى بصداقة ياسر .. لقد كنت

أحس به دائما كأنه صديق العمر .. وقد أخطأ ولو أنه معذور فى خطئه لأنه لا يعلم .. ولم أستطع أنا أن أواجهه بخطئه .. أحسست أنى لو واجهته سيغلبنى حبى له وقد انضم إليه فى مطلبه .. لذلك تعمدت أن أهرب منه .. أهرب من لقائه وأهرب من وداعه ..

وسكتت ميرفت برهة كأنها ترثى له ثم عادت اللمعة إلى عينيها وقالت :

– حسن .. تذكر يوم رفض أبى زواجنا وكنت تقول أن رفضه معناه أنه يعتبر عائلتنا أعلى مستوى من أن تقبل زواج إحدى بناتها من السودان .. وأن فى هذا ما يمس كرامتك وكرامة عائلتك .. وأنك لن تتزوج إلا إذا وافق .. وقد تزوجنا رغم أنك تعلم أنه وافق وهو غير راض .. وافق رغم أنفه .. والآن وأنا أعانى نفس ما كنت تعانيه من أحاسيس .. كنت أنتظر أن توافقوا على زواج ياسر وخدوم حتى وأنتما غير راضين .. إكراما لياسر وخدوم ، واحتراما لكرامتهما وكرامة العائلتين .. ولكنكم رفضتم بصورة بشعة .. وأحس الآن أنى أهنت .. بل أحس أنى ساهمت فى إهانة عائلتى كلها باعتبارى زوجتك .. أحس كأنى أخذت العائلة إلى غابة مليئة بوحوش تنهش كرامة من يدخلها .. أحس كأنى ضحيتك وضحية عائلتك .. إن ما يمس ابن عمى يمسنى ويمس عائلتى ..

وقال حسن مقاطعا وكأنه يتوسل :

– لا تقولى هذا الكلام يا ميرفت .. إننا نحن الاثنين ضحايا ما نعيش فيه .. .. وقدرى الفارق بيننا وبينكم .. إنى لو لم أكن أعلم أنهم فى مصر يزوجون بناتهم لأى غريب ما دام يستحق

الزواج وأن آلافا من بنات مصر تزوجن آلافا من رجال السودان ومن رجال من كل مكان لما تقدمت لأتزوجك .. ولكننا هنا لا نزوج بناتنا لغريب .. إن بنات مصر عالميات وبناتنا محليات .. لماذا نبخل على بناتنا بحرية اختيار ما يريدون .. هذا ما وجدت نفسى أعيش فيه حتى أنى أعجز عن التفكير فيه.. وليس فى كل هذا ما يمس ياسر أو يمسك أو يمس العائلة .. ولكنه ما نعيشه ..

وقالت ميرفت وكأنها فى عالم آخر :

– ليس هناك داع لكل هذا الكلام .. إنى أعلم أن ياسر لن يقول شيئا للعائلة .. لن يحكى الحكاية .. وقد أوصانى ألا أقول أنا أيضا شيئا .. ولكنى لا أستطيع أن أعيش والسم يسرى فى دمى .. أريد أن أعود إلى العائلة لأطمئن عليهم وأطمئن على نفسى .. لا أريد أن أحس بأننى جنيت عليهم ..

وقال حسن ملتفتا إليها فى دهشة :

– ماذا تقصدين ؟..

قالت بسرعة :

– سأسافر إلى مصر .. غدا ..

قال :

– إنى لا أستطيع أن أسافر الآن ..

وقالت محتدة :

– سأسافر وحدى ..

وقال فى دهشة :

– وماذا بعد أن تسافرى ؟..

وقالت وهى تنظر إليه كأنها تتحداه :

– لست أدرى .. إن كل ما أريده الآن هو أن أكون بين عائلتى ..

وسكت حسن كأنه يراجع نفسه ثم التفت إليها هادئا كأنها استعاد كل قوته وقال :

– اسمعى .. إنى لا أريد أن أكون زوجا يفرض إرادته على زوجته غصبا .. وأنا أستطيع أن أمنعك من السفر بجميع الطرق .. ولكنى لن أفعل .. إن كل ما أرجوه منك الآن هو أن تؤجلى السفر بضعة أيام إلى أن تهدئى لعلك تعدلين عنه ..

وقالت فى إصرار :

– سأؤجل ولكنى لن أعدل ..

ولم تتركه يأخذها إلى أحضانه ..

●●●

ومضت خمسة أيام والأحاسيس لا تخف .. والنيات لا تقترب .. والحديث لا يكف .. وميرفت مستمرة فى إعداد حقائبها وهى تزداد إصرارا .. إن حسن لم يقم بأى شىء لإرضائها والتخفيف عنها .. إنه لم يسمح حتى بأن تعود خدوم إلى زيارتها .. وقد قالت له مرة :

– لقد سافر ياسر فلماذا لا تعود خدوم ؟..

وقال حسن وهو يحاول أن يخفف من حدتها :

– إنى لا أستطيع أن أفرض إرادتى على أهلها ..

وابتسمت ميرفت ساخرة .. لا شك أن أهلها أصبحوا يخافون على ابنتهم منها .. يخافون عليها من بنات مصر .. حتى لا يفسدنها ويعلمنها الحب ..

ثم قالت لحسن :

– لقد كانوا يقولون عنى أنى مجنونة لأنى مصرة على زواجنا .. فلا تجعلنى أعود مجنونة وأهرب منك .. أريد أن أسافر ..

وقال حسن وهو ينظر إليها كأنه يستهين بها ويتعالى عليها.. كأنها لم تعد تهمه :

– متى تريدين السفر ؟..

قالت وقد بدأت الفرحة تعلو وجهها :

– بعد غد .. حتى أرسل اليوم برقية إلى مصر ..

والعائلة كلها صامتة .. حتى الحاج بابكر لا يسألها عن سبب إصرارها على السفر .. وهى مشغولة باستكمال إعدادها للسفر .. وذهبت إلى السوق واشترت ما خطر لها من هدايا لأفراد العائلة .. وحسن لا يبخل بشىء .. وفى يوم السفر ارتدت « التوب » السودانى .. إنها تريد أن تصل إلى مصر وهى سودانية ترتدى التوب .. أو لعلها كانت تريد أن تطمئن حسن إلى أنها ستبقى سودانية ..

وركبت السيارة فى طريقها إلى المطار وحسن جالس بجوار السائق .. وتقدمها بخطوات يتم لها كل الإجراءات .. ثم وقف بجانب باب الوصول إلى الطائرة .. ولم يتصافحا ولكنه قال هامسا :

– مع السلامة ..

وقالت وهى تسرع إلى الطائرة :

– أشوفك بخير ..

وسارت فى التوب الذى يبرز لونها ورشاقتها حتى اختفت داخل الطائرة وطارت إلى القاهرة ..

٧

لم يكن ابنى ياسر منذ عودته من الخرطوم قد قال لنا أى شىء عن أى مشكلة صادفته فى السودان .. ولا عن أى مشكلة صادفت ابنة عمه ميرفت .. إن من عادته أن يبتلع متاعبه ويخفيها فى صدره لأنه لا يحب أن يزعج من حوله أو ربما لأنه شديد الثقة فى نفسه حتى يفضل أن يتحمل مشاكله وحده .. ولكننى كنت ألاحظ عليه منذ عاد إنه يبدو كأنه مهموم .. وقد سألته مرة .. وأجاب من خلال ابتسامة لا مبالية :

– لا شىء .. ولكن عيبى دائما أنى أحلم وأعيش أحلامى دون أن أحسب حساب الواقع .. والواقع مزدحم بالمشاكل والمتاعب التى لا تترك الطريق سهلا .. ولم أقرر بعد .. هل استمر فى هذه الأحلام أم ألقى نفسى فى أحلام أخرى ..

وكان يقصد بكلامه المشاكل التى صادفت مشروعاته الزراعية .. لم يتركنا نحس أو نخمن بأنه صادف هناك مشكلة عاطفية ..

أما ميرفت فشىء آخر ..

لقد فرحت العائلة كلها فرحة كبيرة بعودتها وانبهرت بها

وهى ترتدى التوب السودانى وانطلقت الصيحات كأنها زغاريد الفرح .. حتى أبوها الذى كان يحاول الاحتفاظ بمظهر عدم رضائه عنها غلبته الفرحة واحتضنها إلى صدره وعيناها ترتعشان كأن فرحته تهم بأن تعبر عن نفسها بالدموع .. وأنا نفسى هزتنى الفرحة .. فرحة الحب .. حبيبتى .. ابنتى .. وأحسست بها تلقى رأسها على كتفى وهى تحتضننى كأنها وجدت الراحة .. تستريح .. لقد كنت دائما مهبط راحتها ..

وجلسنا حولها وقد صممت على أن تبدأ فى فتح حقائبها وتوزع هداياها وكلنا لا نكف عن الكلام والضحك .. إلى أن استوقفتنى كلمة ..

كانت أمها تبدى انبهارها بالتوب الذى ترتديه وكانت تقول لها أنها تريدها أن تظهر فى مصر دائما بهذا التوب لتثير حسد كل الناس .. فردت عليها ميرفت وهى تبتسم ابتسامة حزينة :

– لا أظن .. ربما أصبح مجرد ثوب ذكريات ..

وقالت الأم مرتاعة :

– لماذا يا ابنتى .. كفى الله الشر .. ماذا تقصدين ؟

وقالت ميرفت وهى تتلهى بما حولها :

– سأحكى لك فيما بعد ..

ثم عادت تشترك معنا فى كلام وضحكات .. وقد بدأت أحس بالقلق بعد الكلمة التى سمعتها .. ولا شك أنها بعد أن خرجنا حكت لأمها .. ولكنها فى مساء اليوم التالى جاءت إلىّ فى البيت وبدأت تحكى .. إنها تعودت أن تحكى لى أكثر مما تحكى لأمها أو لأى فرد فى العائلة .. تحكى كل شىء .. حتى

التفاصيل كانت تحكيها كأنها تغسل الثوب كله فتلة فتلة .. ولم تكف ليلة واحدة تحكى فيها .. أيام وليالى كثيرة وهى تأتى إلى وتحكى .. وكانت أياما تحكى ذكريات وهى تضحك فرحة بها .. وأحيانا تحكى ودموعها بين عينيها .. والقرار الذى كانت تريد أن تصل إيه هو أنها لن تستطيع العودة إلى السودان .. لا يمكن ..

وقلت لها من خلال حكايتها وأنا واثق أنى أستطيع أن أقنعها :

– إن كل ما حدث هو أنك انتقلت من مجتمع إلى مجتمع .. من تقاليد عشت فيها إلى تقاليد أخرى .. من عادات تعودت عليها إلى عادات أخرى .. وأنت فى حاجة إلى وقت طويل حتى تصبحى إنسانة أخرى من بنات المجتمع الآخر .. إن كل من تتزوج وتهاجر مع زوجها إلى بلد آخر تفاجأ بالمجتمع الجديد الذى انتقلت إليه .. سواء انتقلت إلى مجتمع أمريكا مثلا أو مجتمع الحبشة .. وتعانى شهورا وربما سنوات إلى أن تستطيع أن تعيش هذا المجتمع حتى أنها قد تحس بالغربة والمعاناة إذا عادت إلى المجتمع المصرى .. والسودان أرحم لأنه مرتبط بالمجتمع المصرى طوال عمر البشرية .. ووحدة البيئة .. ووحدة تطور الأديان .. ووحدة أصل اللغة .. بل وأيضا وحدة اللون .. إن اللونين مادام كل منهما مصريا أو سودانيا يصبحان لونا واحدا من أصل واحد .. إن بين المصريين ملايين لهم اللون الأسمر الغامق وفى السودان ملايين لهم اللون الأسمر الفاتح .. إن مجرد الشخصية يختلف معها الإحساس

باللون .. وكنت أقول عنك أنك ضعيفة أمام اللون الغامق .. ولكنك تزوجت حسن لا لأنه غامق بل لأنه من السودان .. أى من أهلك .. من دنياك .. كأنك تزوجت من أسيوط أو من طنطا.. أى من بلدك .. ولم تتزوجى صديقه الذى كان من السنغال لأن مجرد لونه الغامق لا يكفى لاقناعك بالزواج رغم ضعفك أمامه .. إنما كان يجب أن يكون أقرب إليك فى شخصيته كأن يكون مصريا أو سودانيا .. أما العادات والتقاليد فهى تختلف داخل البلد الواحد .. إنك لو كنت قد تزوجت فى أسيوط لعانيت نفس المعاناة .. ولا أدرى هل مسموح لبنات أسيوط اليوم بارتداء البنطلون أم لا .. بل إنها تختلف بين العائلات فى المدينة الواحدة .. إن جارنا الأستاذ عبدالموجود لا يسمح لبناته بالكشف عن شعورهن .. مفروض عليهن أن يلتففن بالطرحة .. فى حين أن أكثر ما تتباهين به هو الكشف عن شعرك الأشقر .. وأنا وأبوك نحرم عليك ارتداء المايوه البكينى .. فى حين أن بنات صديقنا الدكتور رمزى لا ينتظرن الصيف إلا حبا فى البكينى .. فكونى واقعية وتحملى واقع الحياة وواقع الإنسان ..

وقالت ميرفت كأنها تقاوم الاقتناع :

– لقد عرفت حسن فى مصر ولم يكن يبدى أى اعتراض على عادات وتقاليد مجتمعنا .. كان يعيش المجتمع المصرى كأنه نفس مجتمعه فى السودان .. لم يحاول أن يمهد لى ما سأفاجأ به فى السودان وقلت وأنا أتعمد الابتسام حتى تطمئن لأنى لا أحاول أن أفرض عليه رأيا :

– ذلك لأن السودان يعيش فى مصر أكثر مما يعيش مصر فى السودان وصلة الجنوب أقوى من صلة الشمال بالجنوب ربما لأن الحياة فى مصر أسهل منها فى السودان .. ولذلك فالسودانى يعلم عن تفاصيل حياة المجتمع المصرى كل دقائقه فلا يفاجأ إذا عاش فيه .. بينما المصرى يفاجأ بكل شىء يعيشه فى السودان .. وليس لهذا علاقة بما يقال عن مستوى الحضارة والتقدم بين البلدين .. هذا كلام فاضى .. إنما هو نتيجة الواقع .. إن مجرد اختلاف الجو بين البلدين يجعل السودان يبحث عن جو أخف حرارة ويجعل المصرى يخشى الجو الأشد حرارة .. تماما كأهل الصعيد وأهل بحرى .. إن الصعايدة يزحفون على الوجه البحرى بدافع الجو الألطف والأرحم .. وتماما كجنوب السودان وشماله .. أهل الجنوب يتكاثرون فى الشمال وأهل الشمال يهربون من الجنوب ..

ولم تكن كل هذه المناقشات بينى وبين ميرفت مناقشات جلسة واحدة بل عشرات الجلسات .. وقد مرت جلسات عديدة لم تقل لى خلالها حكاية ياسر وخدوم .. وأخيرا .. وكأنها أرادت أن تصدمنى حتى أقف مع رأيها قالت لى :

– رفضوا فى السودان أن يقبلوا ابنك زوجا لابنتهم ..

ثم أخذت تحكى الحكاية ..

والواقع أنى فوجئت .. وتلقيت الخبر باحساس السخط والثورة .. ولكنى ضغطت على أعصابى وأقنعت نفسى بأنى يجب أن أرتقى بنفسى عن هذه الأحاسيس العصبية وأن أعتمد على مجرد الاستطراد الفكرى ..

وقلت لميرفت وأنا أحاول أن أبدو هادئا :

– نحن أيضا كنا نرفض زواجك من حسن ..

قالت فى تحد :

– ولكنى تزوجته ..

قلت وأنا أتشاغل باشعال سيجارة :

– لأنك أحببته ..

وصاحت :

– خدوم أيضا أحبت ياسر وكانا يلتقيان فى التليفون كل يوم .

قلت وأنا أنفث الدخان :

– ولكن أباك أعطاك الحق فى أن تختارى وأن تتحملى مسئولية نفسك حتى لو فرضت إرادتك .. لعل الآباء فى السودان يختلفون .. لعل البنات هناك ليس لهن حق الاختيار .. ربما لم يكن لهن حق الحب .. وإذا كان يحدث فى السودان فهو يحدث فى مصر أيضا .. لا تزال عائلات مصرية لا تعطى البنت حق الاختيار .. وأنت نفسك لو كنت تعيشين أيام جدى وقبل أن تتطور عقلية أبيك كما تتطور عقليتى لما استطعت أن تتزوجى حسن ..

وأخذت ميرفت تحكى لى كل ما كان يدور بينها وبين زوجها حول موضوع زواج ياسر وخدوم وأنا أدعى اللامبالاة وأخفف عن نفسى وألقى نكات أضحك لها وحدى لا تشاركنى ميرفت الضحك .

إلى أن عادت ميرفت إلى بيتها ..

وسهرت فى انتظار ياسر وقلت له بمجرد أن وقف أمامى أنى عرفت كل شىء ثم سألته كأنى ألومه فى حدة :

– لماذا لم تحك لى ؟..

قال فى بساطة :

– كانت تجربة فشلت وانتهت ..

قلت فى عجب :

– ألم تتأثر بهذه التجربة ؟..

وقال وقد أطل الألم من عينيه :

– بالعكس .. تأثرت .. لقد أحببت خدوم فعلا .. ومازلت أقاوم حبها ..

قلت وأنا أشفق عليه :

– ألن تستمر فى المحاولة ؟

وقال بعصبية :

– لا .. لا يمكن .. وإن كنت أتمنى أن يبدأوا هم فى المحاولة .. وهذا مستحيل ..

ثم قام من أمامى متجها إلى حجرته قائلا :

– بابا .. أعتبر هذا الموضوع كأن لم يكن ..

●●●

وكان قد مر أكثر من عشرين يوما على عودة ميرفت من الخرطوم ..

وكان حسن قد اتصل بها فى التليفون من هناك ليطمئن على وصولها .. ثم اتصل بها مرة ثانية ليعلم موعد عودتها .. ولم تجبه ميرفت بما يطمئنه .. ثم فوجئت به أمامى فى بيتى ..

لقد جاء من الخرطوم ..

وعلى عكس ما تعودته منه من تردد قبل أن يتكلم ومن هدوء وتزمت قال مباشرة بعد أن تصافحنا وجلسنا والدهشة لا تزال مسيطرة عليّ :

– قد تكون متأثرا بالموضوع الخاص بصديقى وأخى ياسر ولكنى رغم ذلك فضلت أن تكون أول من أتحدث معه بمجرد وصولى إلى مصر .. فأنت الذى تفهمنا وتعذرنا وقد اعتمدنا عليك أنا وميرفت عندما تزوجنا .. لولاك لما كنا نعلم ما يحدث.. والحمد لله ..

وقلت فى هدوء قبل أن يتم كلامه ..

– ليس هناك موضوع خاص بياسر .. لقد قرر ياسر أن ما حدث كأن لم يحدث .. إن الموضوع الوحيد هو الموضوع الخاص بك أنت وميرفت وقد تحادثت معها فيه طويلا ..

وقال حسن وهو يحاول أن يدارى عصبيته :

– إنه موضوع لا يحتاج إلى حديث طويل .. إن من يقيم فى السودان يعيش تقاليد وعادات السودان .. هذا أمر معروف ومفروض .. وزوجتى تعيش مع عائلتى أى تعيش السودان .. وكل ما كنا نختلف عليه هو هذه التقاليد والعادات .. وأنا لا أستطيع تغيير عاداتنا ولكن ميرفت تستطيع أن تعيش هذه العادات ..

وقلت وأنا أبتسم له وأحاول أن أخفف من عصبيته :

– هل تعلم ميرفت أنك وصلت ؟..

قال بسرعة :

– تعلم.. وتعلم أنى فى زيارتك.. ولكنى لم أرها ولم أزرهم..

قلت هادئا :

– لننتظر إلى أن تجتمعا ونبدأ الحديث .. فلن يؤدى حديثى معك وحدك إلى شىء كما لم يؤد حديثى معها إلا إلى مزيد من الكلام .. غدا سأدعوها لنجتمع هنا .. إنى أعلم أنكما لن تستطيعا أن تصلا إلى شىء إذا اجتمعتما فى بيتهم وبحضور أبيها..

وقبل أن ينصرف ليعود غدا دخل ابنى ياسر .. والتقيا لأول مرة بعد أن كانا فى السودان .. وقد لاحظت عينى حسن ترتعشان ويتردد قبل أن يمد يده المرتعشة مصافحا .. ولكنى أعجبت بابنى ياسر .. لقد كان فعلا قويا .. لم تهزه المفاجأة .. ولم يبد كأنه يحمل شيئا يؤلمه أو يحمل ضغينة ضد حسن .. ومد يده بسرعة يلتقط يده مصافحا وهو يصيح :

– أهلا .. ما هذه المفاجأة .. الحمد لله على السلامة ..

وتبادلا الكلام وحسن يبذل مجهودا ويحاول هو أيضا أن ينسى .. ونزل معه ياسر حتى ركب السيارة التاكسى متواعدا معه على لقاء .. وياسر بذل مجهودا فعلا فى أداء فروض الصداقة مع حسن .. ولكنهما لم يعودا أبدا كما كانا .. إنما كل ما بينهما أصبح مجاملات مفتعلة .. إن ما فات لا يمكن أن ينسى .. وياسر يتعمد ألا يجلس معنا عندما اجتمع بميرفت وحسن لأنه يعلم أنه لن ينسى ..

وقد التقى حسن وميرفت دون أن يتبادلا قبلات اللقاء .. القبلات العائلية كعادتنا .. واكتفت بأن قالت له :

– الحمد لله على السلامة ..

ورد ويدها فى يده :

- كيف حالك ..

قالت وهى تسحب يدها وتجلس :

- الحمد لله ..

وبدأنا الحديث .. إنه دائما نفس الحديث .. واستمر الحديث أياما .. وأنا وحدى معهما فزوجتى سعاد كان لها رأى .. كانت لا تريد أن تعود ميرفت إلى زوجها .. ولكنها لم تقل رأيها واكتفت بألا تشترك معنا فى الحديث .. وكنت أنا أتعمد أحيانا أن أترك ميرفت وحسن وحدهما فى الغرفة لعلهما يلتقيان فى رأى ولكن أعود وأجدهما كما كانا ..

وكانت ميرفت مصرة على أنها لن تستطيع أن تعيش فى السودان .. ثم تحنى رأسها وتقول وهى تتنهد كأنها تتذكر الأيام الحلوة .. إنه ليس معنى هذا أن تكف عن زيارة السودان.. إنها تحب السودان ولكنها لا تستطيع أن تعيشه .. والحل الوحيد هو أن يعيش زوجها معها فى مصر ..

ويثور حسن .. إن بلده السودان لا مصر .. ومستقبله فى السودان لا فى مصر .. وقد تعلم وأنهى دراسته ليعيش فى خدمة السودان لا فى خدمة مصر ..

وتثور ميرفت لثورته .. إنه وهو فى مصر سيكون فى بلده.. وهى واثقة أن مستقبله مضمون فى مصر كما هو مضمون فى السودان .. ربما استطاع أن يخدم السودان أكثر وهو فى مصر ..

ويصرخ حسن :

- هل تريدين أن أشحذ من أبيك أو من عمك حتى يجدا لى عملا فى مصر ..

وترد ميرفت هادئة :

- لقد اعتمدنا على أنفسنا حتى تزوجنا فى مصر وسنعتمد على أنفسنا حتى نعيش فى مصر .

ويقول حسن فى حدة :

- إن كل ما سأفعله هو أنى سأعود إلى بلدى وأنتظرك هناك .

ويخرج من البيت ..

ثم يعود إلى لقاء جديد ومناقشات جديدة وثورة جديدة ..

ولم يسافر حسن .. ولم تنقطع لقاءاته مع زوجته فى بيتى ولم تنته أبدا المناقشات .. وقد ذهب لزيارة حماه أخى مدحت .. واعتذر له مدحت بأنه لن يتدخل فيما بينه وبين ميرفت .. إنها مسئوليتهما وحدهما .. والواقع أننا كنا كلنا لا نتدخل للضغط على أحدهما .. كل منا كان مقتنعا بأن يترك المسئولية كلها عليهما .. إما أن يعودا أو لا يعودا .. وإما أن يعيشا فى مصر أو فى السودان .. لقد كان زواجهما زواج حب .. والحب هو الذى يفرض النهاية لا الرأى ..

وإنى أذكر أن حسن كان قد أجل عودته إلى السودان أكثر من شهر بعد أن تخرج فى الجامعة حتى استطاع أن يتزوج ميرفت .. وهو يؤجل عودته الآن حتى تعود معه ..

ولا أدرى إلى متى يستطيع أن يؤجل عودته ..

ولا أدرى حتى الآن هل ستعود ميرفت إلى السودان ؟..

أعوذ بك منك

لم يكن هناك شك فى أن مصير الشيخ محمد ابن عويس بعد عمر طويل هو أن يدخل الجنة .. فقد قضى عمره وهو يكافح ويسعى لإنقاذ فقراء قريته وحمايتهم من اطماع بسيونى العمدة .. بسيونى الشيطان الذى عصر كل اهل القرية بين أصابعه فلم يبق فيها رأى إلا رأيه .. ولم يبق فيها حق إلا حقه .. ولم يبق فيها حرية إلا حريته .. وقد جمع بسيونى العمدة نفرا من اهل القرية جعل منهم عصابة يسلطها على اعدائه .. ويسرق بها ما يغريه بالسرقة .. ويصل بها إلى ما يريد أن يصل إليه .. وعلى كل اهل القرية إما أن ينضموا إلى عصابة بسيونى ليكونوا جناة أو يبتعدوا عنها ليكونوا مجنيا عليهم .. وقد أحال الشيخ محمد ابن عويس القرية إلى ما هو اشبه بالجامع الكبير يجتمع فيه الفقراء ليهربوا من بسيونى الشيطان .. يهربون إلى الله يدعونه أن يرحمهم من بشاعة الشيطان ويحميهم من خبثه ومن التغرير بهم ومن القضاء عليهم .. ولم يكن محمد بن عويس يملك إلا الدعوة إلى الله فهو ملاك لا يعرف من شئون الدنيا إلا الدعوة إلى الله .

ولم يكن لمحمد بن عويس عمر طويل .. لقد قتل يوم رشح بسيونى العمدة نفسه فى الانتخابات فوقف محمد بن عويس يدعو أهل القرية إلى رفضه ويدعو الله إلى اسقاطه .. بسيونى هو الذى قتله ولكن لا أحد استطاع أن يقترب من بسيونى واعتبر الحادث قضاء وقدرا وقيد ضد مجهول .. وكأن الله هو الذى قتله .

وصعدت روح محمد بن عويس إلى السماء واستقبلته الملائكة بالترحاب والفرحة حتى أنهم قرروا أنه ليس فى حاجة إلى محاسبته فقد كان إيمانه أقوى من أن ينزل به الحساب .. لقد عاش على الأرض بإيمان الملائكة وطهارة الملائكة وتعفف الملائكة وباحتمال قدر الله كما يحتمل الملائكة .. أنه منهم . والملائكة لا يحاسبون .. وفتحوا له الجنة من أزهى أبوابها وخطا داخل الجنة إلى أجمل أبهائها .. وقضى وجوده فى هناء وسعادة فى عالم آخر ليس فيه أيام ولا ليال .. ولا يتمنى إلا ويجد ما يتمناه .. وهو لا يكف عن حمد الله على ما هو فيه من نعيم لا يقاس بقدرة البشر على تصور النعيم .

ولكنه وهو فى النعيم بدأ يعود بإحساسه إلى قريته .. ترى ماذا فى القرية .. ترى ماذا حل بأهلها وكيف حالهم .. يا رب لماذا تركت لى إحساسى بقريتى .. لماذا لم تنسنى الدنيا التى خرجت منها إلى جنتك ونعيمك .. ووجد نفسه يلقى بنفسه راكعا ويرفع ذراعيه إلى الله مناديا :

– يارب دعنى أرى ما يجرى فى قريتى .

وما كاد يتم دعاءه حتى رأى القرية كلها أمام عينيه ..

وابتسم حمدا وشكرا لله مباركا أهل القرية عندما رآهم وقد رفعوه إلى مرتبة الأولياء وبنوا له قبة يتبركون بها ويطوفون حولها يدعونه أن يتوسل لهم لدى الله حتى يرحمهم من شر بسيونى العمدة .

إن بسيونى لا يزال كما هو .. يدوس أهل القرية تحت أقدامه ويسلط عليهم عصابته ليبتز كل ما يقدمونه من جهد ويمتص كل ما فيهم من عرق ويلتهم كل ما يصل إلى أيديهم من خير .. إن الشيطان لا يزال جبارا ولا تزال الكلمة كلمته والخطوة خطوته والمصير مصيره ..

يارب رحمة بأهلى .

ولكن الله يخلق البشر فى معركة مع الشيطان حتى يفرقوا بين الخير والشر وحتى يقوى إيمانهم إلى أن ينتصر بهم الخير على الشر .

ولكن ما هذا ؟!!

إن بسيونى العمدة استولى على ألف فدان من الأرض ليقام عليها مصنع يعمل فى خدمة الأغنياء .. أن شهوة الشيطان استولت على الأرض .. ولن تعود الأرض إلى إنتاج الخيرات التى يهبها الله .. ولن يعود الفلاح فلاحا يقضى حياته فوق الأرض يرويها بعرقه ويحييها بحياته .. ولن يعوضه بسيونى بشىء .. لن يعطيه أرضا بدل أرضه .. ولن يعوضه بدفع ثمن الأرض حتى يبحث كل فلاح لنفسه عن حياة أخرى .. إن محمد ابن عويس يرى بعيون أهل الجنة ما يمكن أن يحل بأهله .. سيتشردون ضائعين جائعين يستجدون الحياة ..

ماذا يطلب محمد بن عويس من الله حتى ينقذ أهله ..

وفكر أن يطلب من الله أن ينتشل أهل قريته من على الأرض.. أن ينتشلهم من حياة الآدميين ويرفعهم إليه ويدخلهم الجنة ليعيشوا معه فى نعيم .. فهم غلابة .. مؤمنون .. وإن كانوا لم يصلوا بإيمانهم إلى قوة القضاء على الشيطان لأنهم ضللوا فى إيمانهم .. ورغم ذلك فالله أرحم الراحمين وهو أعلم العالمين بشقاء أهل القرية ولن يحرمهم من نعيم الجنة .

ولكن ..

لقد كتب الله علينا أن نحارب الشيطان حتى يوم أن نصل إليه .

وأهل القرية يحاربون ولكنهم غير قادرين .. إنهم فى حاجة لمن يهديهم .. وفى حاجة لمن يرشدهم .. وفى حاجة لمن يفتح لهم الأبواب لما خفى عنهم من قوة الإيمان .

وألقى محمد بن عويس بنفسه على الأرض رافعا دعاءه إلى الله :

– يا رب .. دعنى أكون بين أهلى حتى أرشدهم وأهديهم إلى سواء السبيل وأنصرهم على الشيطان ..

ولمعت الجنة بالضوء الباهر ووجد محمد بن عويس اثنين من الملائكة يأتيان إليه ويجتمعان حوله وهما يلفانه بالبركات ويرفهان عن كمده وقال أحدهما :

– إن الله لا يخيب أمل أهل الجنة .. ولكن كيف تريد أن تكون بين أهل قريتك ..

وقال محمد بن عويس وقد انشرح صدره :

– أريد أن أنزل إلى الأرض وأقف بينهم .

وقال الملاك :

– إنك كما أنت أصبحت ملكا لله .. والله يكرم أهل الجنة وقد أعفاهم من معارك أهل الأرض .. لقد اجتزت معركتك حتى وصلت إلى الجنة .. ولكن تستطيع أن تختار لنفسك صورة من صور الأرض تتيح لك ما تريد دون أن تكشف عن وجودك فى الجنة .

وتاه محمد بن عويس فى أفكاره حائرا إلى أن قال :

– سأنزل إلى أهلى كأنى لست منهم .. سأنزل إليهم كأننى مفتش زراعة ..

ولمع بريق الجنة .. ووجد محمد بن عويس نفسه بين أهله وقد تغيرت صورته وهو يرتدى بدلة كأنه من أهل المدن كما هى صورة مفتش الزراعة .. وذهل محمد بن عويس وهو يرى أهل القرية وهم يستقبلونه كأنهم يعرفونه .. يعرفون أنه مفتش الزراعة .. هذه هى إرادة الله .

وقال فى صوت ينبض برنة الملائكة :

– إنكم أصحاب الحق . لذلك فلا تتركوا الأرض كما يريد بسيونى العمدة .. إن أصحاب الحق هم الأقوى .. أقوى من الذين يسرقون حقوق الناس .. وهم فى حماية الله سبحانه .

وقال فلاح كأنه يبكى :

– كيف نبقى فى الأرض ورجال العمدة يأتون إلينا ويطردوننا منها بالكرباج .. ومن يبقى يشدونه من عنقه ليلقوه فى الترعة .. ثم يقلعون أعواد القمح .. ويخلعون أشجار

القطن.. ونحن لا حول لنا ولا قوة إلا الدعاء إلى الله أن يرحمنا من الشيطان .

وقال محمد بن عويس :

– إن من يبقى على أرضه ويموت عليها فله الجنة .. وسأرد بسيونى العمدة عن ارتكابه جرمه .. وسأجعل الحكومة ترعى حقوقكم .

وسكت الأهل وهم يذرفون الدموع إلى أن قال فلاح :

– كيف ترد بسيونى العمدة عن غيه .. إنه لا يقبل كلمة .. ولا يعترف بمخلوق على الأرض سواه .. حتى عندما استسلمنا له على أمل أن يعطينا ثمن الأرض التى اغتصبها لعلنا نجد عونا على الحياة وعلى إطعام أطفالنا فإذا به يطالب كلا منا أن يبرز عقد ملكية أرضه وهو يعلم أن ليس معنا عقود .. إن الأرض بيننا كأنها بيوتنا التى نبنيها بالطين دون حاجة إلى عقد وكل منا يعيش على أرضه كما يعيش فى بيته .

وعاد محمد بن عويس يكرر وهو ينظر إليهم فى إشفاق نظرات الملائكة :

– عيشوا على الأرض ومن مات عليها فله الجنة .. واتكلوا على الله الرحمن الرحيم .

وتركهم محمد بن عويس وسار إلى دوار العمدة ودخل بلا استئذان فإذا ببسيونى العمدة يستقبله كأنه يعرفه ويعرف أنه مفتش الزراعة وقال مبتسما وهو ينظر إليه فى استهانة :

– خيرا يا حضرة المفتش ..

وصاح محمد بن عويس فى لهجة آمرة :

– لن أدعك تأخذ الأرض لتقيم عليها هذا المصنع ..

وقال بسيونى العمدة ساخرا :

– لماذا يا حضرة المفتش .. هذا خير من الله على القرية .. ستزدهر وتصبح كأنها مدينة صناعية ..

وصاح محمد بن عويس :

– إن الله أعطانا هذه الأرض لنزرعها ونعيش على خيراتها لا لنقيم عليها مصنعا يدر الخير على الأغنياء ويحرم منه الفقراء ..

وقال بسيونى العمدة ورنة السخرية لا تزال فى كلماته :

– إن الخير يعم القرية يا حضرة المفتش ..

وعاد محمد بن عويس يقول فى غضب :

– إنه خير يستحوذ عليه الشيطان وينهال عليك وحدك .. وقد كنت تستطيع أن تقيم المصنع خارج القرية فوق رمال الصحراء دون أن تغتصب أرض الفلاحين وتحرمهم من خيراتها التى خصهم الله بها .. واتق غضب الله .

وقال بسيونى العمدة وصوته يرن بالهزء :

– لا إله إلا الله .. إن الله كفيل بالفلاحين .. يكفل لهم الرزق ويصون لهم الحياة .. كما أن الله هو الذى خصنى بالذكاء الذى أستعين به لأقيم فى قريتى مصنعا .

وصاح محمد بن عويس :

– الله خلق الشيطان وسلط عليه المؤمنين ليطمسوه .. وأنت شيطان رجيم .. وسأوصى الحكومة لتقتلعك من جذورك كما اقتلعت أعواد القمح وشجيرات القطن وكما تقتلع الفلاحين من فوق أرضهم .

وضحك بسيونى العمدة ضحكة صارخة وصاح من خلال ضحكته :

– مع السلامة يا حكومة .

واختفى محمد بن عويس من أمام بسيونى وطار فوق أجنحة الملائكة إلى أن حط فى بيت وزير الزراعة .. واستقبله وزير الزراعة وقد سيطرت الملائكة على قوة إدراكه فأصبح كأنه يعرف محمد بن عويس منذ زمان طويل كأنه مفتش زراعة واستقبله مرحبا :

– أهلا حضرة المفتش .

وقال محمد بن عويس لاهثا :

– هل علمت بما يجرى ؟

وقال الوزير مبتسما فى هدوء :

– إنى عليم بكل ما يجرى .. فماذا تريد أن تعرف مما أعلم؟!

وقال محمد بن عويس وهو ينفث غضبه :

– إن بسيونى العمدة استولى على الأرض وطرد منها الفلاحين ليقيم عليها مصنعا .

وقال الوزير هادئا :

– هذا ما عرض علينا ونال موافقتنا .

وصاح محمد بن عويس :

– إنه لم يدفع للفلاحين ثمن الأرض وتركهم مشردين يموتون جوعا .

وقال الوزير من خلال هدوئه :

– إن القانون كفيل برعايتهم وصيانة حقوقهم .

وقال محمد بن عويس ساخطا :

– إنهم أضعف من أن يصلوا إلى القانون المكتوب .. وهم فى حاجة إلى قانون الفكر العادل والنفس المؤمنة .

وقال الوزير وكأنه بدأ يزهق مما يسمعه :

– إن القانون هو ما يكتب ويقرأ .. وأنا رجل لا يؤمن إلا بما يكتب ويقرأ ..

وصاح محمد بن عويس :

– إن القانون المكتوب لا يحرم إقامة مصنع على أرض مزروعة ولكن قانون الفكر والعقل المستنير المؤمن العادل يحرمه .

وقال الوزير من خلال زهقه :

– إن القانون لا يتعرض لما يحقق الخير .. وإقامة مصنع هو خير ..

وصاح محمد بن عويس :

– إن الله أوصانا بأن نعمم الخير على كل الناس .. ولا يمكن أن يحقق الخير مصنع يقوم على خيرات أرض زراعية ولا يمكن أن يكون للعمال خير بالقضاء على خير الفلاح ..

وقال الوزير وقد أصبح زهقه سخطا :

– هذا خلاف بينى وبينك .. ليس خلافا حول القانون ولكنه خلاف فى الفكر .. وقد وهب الله خلقه حرية الفكر .. مع السلامة يا حضرة المفتش ..

واختفى محمد بن عويس من أمام الوزير وهو يحس بغصة لم يتعرض لمثلها منذ دخل الجنة .. وطار بغصته إلى القرية ..

ورأى فى القرية بسيونى العمدة وهو لا يزال مستمرا فى غيه وجشعه .. إنه يستولى فى كل يوم على قطعة أرض ويطرد منها فلاحيها ويتركهم للتشرد والجوع والضياع .. ماذا يستطيع محمد بن عويس أن يفعل أكثر مما فعل .. لقد حاول أن يحرض أهله على الثورة فلم يثوروا وبقوا مستسلمين لضعفهم وهزالهم .. مكتفين بالدعاء إلى الله .. وحاول أن ينشل بسيونى من سيطرة الشيطان فرفض بسيونى أن يضحى بسيطرة الشيطان .. وحاول أن يأخذ الوزير ليقف بجانبه فخيب الوزير أمله .. كل ذلك رغم أنه ملاك من أهل الجنة .. إنه يعيش بفكر الملائكة .. ويخطو خطوات الملائكة .. ويتكلم كلام الملائكة .. ولكن الشيطان هزمه .. الشيطان انتصر على الملاك .. النصر دائما للشيطان .

ولكن ..

من خلق الشيطان ؟

إنه الله عز وجل ..

ومن ترك للشيطان هذا الجبروت الذى يسيطر به على البشر ؟!

إنه الله عز وجل ..

وألقى محمد بن عويس بنفسه راكعا على الأرض رافعا ذراعيه مستنجدا بالله صائحا بكل إيمانه :

- يارب.. أعوذ بك منك .. هبنى قوة الشيطان حتى أنتصر عليه ..

وفجأة .. أحس محمد بن عويس برعشة عنيفة تنتابه ..

وقوة خفية ترفعه إلى السماء وتهبط به مرات كأنها تدكه دكا.. إلى أن وجد نفسه مستقرا على الأرض فى قريته .. وأحس بنفسه كأنه تغير وأصبح مخلوقا آخر .. إنه يحس أن على شفتيه ابتسامة لم يتعودها .. ابتسامة خبيثة .. ويحس كأن ملامحه تغيرت حتى أصبحت أقرب إلى ملامح بسيونى العمدة.. وأحس بفكره يتلوى داخل عقله يفتتح آفاقا جديدة لم يكن قد طرقها .. وطغى عليه إحساس بالجبروت أنساه ما كان يحس به من رحمة .

لقد استجاب الله لدعائه ..

أصبح شيطانا .

إنه شيطان يحارب الشيطان الذى يتقمص شخصية بسيونى العمدة ..

وبدأ فكره يتجه فى اتجاه كان غريبا عليه .

كيف استطاع بسيونى العمدة أن يفرض سيطرته على أهل القرية ؟

إنه يسيطر عليهم بعصابته .

فليأخذ منه العصابة .

وطار محمد بن عويس فى حفيف غريب كأنه حفيف الفئران المتسللة حتى وقف أمام عوضين أبو قنديل .. إنه رجل ضخم جامد ككتلة الصخر التى تهدد كل من يمر بها بالانهيار فوقه .. ومعروف أنه زعيم العصابة التى تخضع لبسيونى العمدة ويحركها لتحقيق أطماعه .. إنه زعيم عصابة الشيطان .. وانتفض عوضين عندما رأى محمد بن عويس أمامه ونظر إليه

متحفزا كأنه يهم بالانهيار فوقه .. وابتسم محمد بن عويس يطمئن عوضين وقال بصوته كأنه الفحيح :

– سلام يا عوضين .

وقال عوضين وقد لانت نظرته وأصبحت نظرة حائرة :

– خير يا حضرة المفتش .. لقد عودتنا على أن تمر علينا دون أن تقرئنا السلام .

وقال محمد بن عويس :

كنت أشفق عليك فأضن عليك بالسلام حتى لا أتذكر مأساتك .

وقال عوضين فى لهجة خشنة كأنه يعلن سطوته :

– كيف تشفق علىّ .. وكيف أكون فى مأساة .. أنا عوضين أبو قنديل يا حضرة المفتش ..

لا أحد يشفق علىّ بل أنا الذى أشفق على الناس .. وليس فى حياتى مأساة فإنى أقتل المآسى قبل أن تقربنى .

وقال محمد بن عويس وهو يبتسم ابتسامته التى تنطلق بالفحيح :

– نشرب الشاى ونتحدث عن سر شفقتى عليك .

وجلس عوضين وأشعل النار التى أخذت تنطلق بينه وبين محمد بن عويس كأنها نار الجحيم .. وقال محمد بن عويس وهو يرفع كوب الشاى إلى شفتيه فلا ينقص الكوب شيئا مما فيه وهو بين شفتيه .

– إنى أشفق عليك مما يحطه عليك بسيونى العمدة .

وقال عوضين مقاطعا :

– إنه سيدنا ونحن تحت أمره .

وقال محمد بن عويس :

– ولماذا لا تكون سيد نفسك وسيده .. أنت السيد يا عوضين .. أنت الذى تضع يدك على الأرض ثم تعطيها لبسيونى ليملأ بها جيوبه بالملايين وتبقى أنت وجيوبك خاوية إلا من ملاليم .. كأنك تقدم له نفسك ليمضغك بأسنانه ويملأ بك بطنه .. لماذا لا تأخذالأرض لنفسك وتصبح أنت السيد .. وتريحنى من أشفاقى عليك .

وتاه عوضين فى أفكاره وجفونه ترتعش فوق عينيه كأنه فهم شيئا لم يكن يخطر على باله .. ثم قال :

– إن بسيونى هو العمدة .

وقال محمد بن عويس وهو يفح :

– ماذا يساوى العمدة أمام قوة عوضين .

وقال عوضين وهو يتنهد كأنه يندم :

– إنه يأخذ الأرض وهو مطمئن إلى أن الحكومة بجانبه فكيف أطمئن أنا .

وقال محمد بن عويس :

– إنك لن تأخذ الأرض ولكنك تعيدها إلى الفلاحين وتفرض عليهم الإتاوات .. كل يدفع لك ليحتفظ بالأرض لنفسه وإلا ضاعت منه .. وبهذا تمتلىء جيوبك بالملايين وتصبح السيد .

وقال عوضين وهو تائه كأنه لا يصدق ما يرن فى أذنيه :

– هذا كلام .. لو غضب بسيونى منا لسلط علينا البوليس ووجدنا أنفسنا مساجين .. إنه العمدة .

وقال محمد بن عويس وهو يركـز عينيه على عوضين كأنه يتسلل إلى عقله :

– تخلص من العمدة .

وقال عوضين فى دهشة المفاجأة :

– كيـــف ؟

وقال محمد بن عويس :

– هذا شأنك .. المهم ألا تخاف الحكومة .. أنسيت يوم قتلتم محمد بن عويس لحساب بسيونى ولم تقبض الحكومة عليكم.. وكل أهل القرية يريدون قتل بسـيونى ولن تعرف الحكومة من قتله منهم .. سيقـيد الحادث ضد مجهول كـما حدث يوم قتلتم محمد بن عويس .

وقهقه ابن عويس قهقهـة عالية كأنها عواء الديب واستطرد قائلا :

– إنهم يقولون إن مـحمد بن عويس دخل الجنة وأقـاموا له فى القرية قبة يتعبدون فـيها إلى الله .. ولكن بسيونى لو ضاع فلن يدخل الجنة .. الجنة لا يدخلها الشياطين .

وقال عوضين .

– مالنا الآن والجنة والنار .. إننا فيما نحن فيه .. لقد فتحت عــقلى إلى مــا كـــان لا يخطـر لى على بال .. ودعنـى أفكر يا حضرة المفتش .

وقال محمد بن عويس وهو يفح :

– فكر يا عوضين .. سلام .

واختفى مـحمـد بن عويس من أمام عـينى عوضــين ولكنه

لم يبتـعد عنه .. ظل يحـوم حوله ويتسلل إلى داخـل عقله يفح فيه .. فحيح الشيطان .

ورأى عـوضين يسـتدعى كل أفـراد العصـابة ويتحـدثون طويلا حـتى الفـجـر ثم يرقـدون نيـامـا على الأرض .. ومـر الصباح دون أن يتـحركوا من رقدتهم إلى أن جـاءهم بسيونى العمـدة يسيـر فى كبرياء كـأنه يدوس على كل البشـر وبطنه منفـوخة كـأنه أكل كل القرية وحـوله بعض من رجاله كـأنهم عـصيـان يضرب بـها الناس .. ووقف ينظـر إليهم فى سـخط وصاح فى غضب :

– ماذا جرى لكم اليوم .. لعلكم نسـيتم ما أمرتم به .. اليوم يوم أرض شحاتة الرافعى .. لماذا لم تذهبوا إليها ..

وقام عـوضين واقفـا وقال وكل كلمة يـضعهـا على لسانه محمد بن عويس :

– كفانا يا حضرة العمدة .

وصاح بسيونى العمدة :

– ما هذا الذى كفاكم ؟

وقال عوضين :

– كفانا إيذاء الناس .. إن أهل القرية أصبحوا كأنهم يتامى.. من أخذنا أرضـه أصبح يتـيمـا ومن سنأخذ أرضه يـعيش فى انتظار اليتم .. إنهم غلابة يا حضرة العمدة .. حرام علينا قومنا الغلابة .. لـماذا نأخذ من الغلابة ولا نـبحث عن الأغنيـاء لنأخذ منهم .

وصرخ بسيونى العمدة :

– ما هذا الكلام يا واد يا عوضين .. منذ متى تقول هذا الكلام .. لقد نفختك وحميتك حتى أصبحت تتطاول .. منذ متى وأنت تحس أننا نأخذ من الغلابة .. إنى لست لصا كما أنت لص .. إنى أرتفع بخير القرية وأجعل منها مصنعا .. اسمع .. لعلكم أفرطتم فى الحشيش خلال الليل مما جعلك تخرف بهذا الكلام سأرحمك اليوم .. ولكن غدا سأراكم على أرض شحاته الرافعى وإلا خربت بيوتكم وألقيت بكم كلكم فى السجن .. فاتقوا غضبى .. غضب العمدة .

وتركهم بسيونى العمدة .. وبقى عوضين جالسا ملتفا بأفراد عصابته ومحمد بن عويس ليس معهم ولكنه لا يكف عن النفخ فى عقل عوضين .. لم يعد هناك إلا التخلص من بسيونى العمدة .

وفى الليل التف أفراد العصابة حول بيت العمدة وتسلل عوضين إلى داخل البيت وقتل بسيونى .. ثم خرج هادئا كأنه لم يفعل شيئا .

وقام أهل القرية فى الصباح على فرحة تجيش فى صدورهم وتلمع فى عيونم .. لقد انتهى بسيونى العمدة .. خلصنا الله من الشيطان الرجيم .

ومحمد بن عويس تطير به الفرحة .. لقد قتل الشيطان الذى كان قد قتله .. وهو يحس بالفرحة كما أحس بها وهو يدخل الجنة .. إن الله منتقم جبار وقد انتقم لأهل الجنة .

ولم يترك محمد بن عويس رأس عوضين .. بقى ينفخ فيها ودفعه إلى أن يشيع أن القاتل هو شحاتة الرافعى حتى

لا يستولى بسيونى العمدة على أرضه .. وقبض البوليس على شحاتة وبدأ التحقيق معه .. وأهل القرية صامتون لأنهم لا يعلمون .. وفرحتهم بقتل العمدة بدأت تقودهم إلى التساؤل عما سيكون مصيرهم بعد قتله .. ونفخ ابن عويس فى رأس عوضين فبدأ يجتمع بأهل القرية ويقول لهم إن الأرض ستعود إليهم .. كل يعود إلى الأرض ولا يخشى أن تؤخذ ليقام عليها المصنع .. وانطلقت الزغاريد وكل فلاح يحمل فأسه ويعود إلى الأرض ويضرب الأرض ليصل إلى خيرات الله .. ولكن عوضين قال لهم إنهم فى حاجة إلى حماية الأرض وحماية أنفسهم حتى لا يصل إليهم عمدة آخر يشردهم ويخرب بيوتهم .. وهو الذى سيقوم بحمايتهم فليدفعوا له .. واستسلم له الأهالى .. كل الأهالى ..

وكان محمد بن عويس جالسا تائها فى فرحته عندما هل عليه ملاك كان يعرفه وهو فى الجنة .. وقال له الملاك فى صوت ناعم هادىء :

– ألا تعود معى .

وقال محمد بن عويس فى ضيق :

– إلى أين ؟

وقال الملاك فى صوت كالنغم :

– إلينا ..

وقال محمد بن عويس وهو يخفى عينيه عن الملاك :

– لقد كلفنى الله بأن أنقذ أهل قريتى .. ومهمتى لم تنته بعد ..

وقال الملاك فى طيبة الملائكة :

– لقد عادت الأرض إلى أصحابها .. والباقى عليهم .

وقال محمد بن عويس وكأنه يجرى من الملاك :

– لا .. إنهم لا يزالون فى حاجة إلىّ ..

وقال الملاك وهو ينظر إليه فى إشفاق :

– تقصد أنهم فى حاجة إلى الشيطان .

وقال محمد بن عويس كأنه يتحدى :

– إن الله هو الذى يخلق الشيطان وقد أذن لى أن أكون شيطانا .

وابتعد الملاك عنه دون أن يرد عليه .

●●●

ومرت الأيام وبدأ البحث عن عمدة جديد للقرية .. وسأل عوضين وهو جالس مع مفتش الزراعة محمد بن عويس :

– ترى من يكون العمدة الجديد ؟!

وقال محمد بن عويس وفى صوته فحيح الشيطان :

– أنت العمدة الجديد .. وسأتولى أمرك .

وبدأ محمد بن عويس يعمل ليكون عوضين هو العمدة .. عمدة الشيطان كما كان بسيونى عمدة شيطان آخر .. وبدأ يهمس فى عقول أهل القرية .. ويطير ليهمس فى عقول المسئولين فى القاهرة .. إلى أن أصبح عوضين هوالعمدة .. وانتشى محمد بن عويس بالفرحة .. إنه هو العمدة .. حتى لو كان هو الشيطان .. إنه يحس الآن بأن الشيطان هو الذى يملك القرية كلها .

وهو يعيش ليله ونهاره يطوف بين أهل القرية يراقبهم وينفخ ما يريده فى عقولهم .. إن القرية كلها أصبحت قرية الشيطان .. إلى أن جاءه عوضين يوما قائلا :

– إن الأهالى يشكون من دفع الأتاوة المفروضة عليهم حتى أنى قررت أن أفزعهم .. من لا يدفع أقضى عليه حتى يكون عبرة لغيره .

وسكت محمد بن عويس برهة ثم قال :

– لا .. لا تقض على أحد .. إنهم كلهم موالون خاضعون يلبون ما يفرض عليهم .. كل ما تفعله هو أن ترفع أسعار ما يبيعونه من خيرات الأرض حتى يستطيعوا أن يدفعوا لك .

وقال عوضين :

– ولكن قد لا يشترى التاجر الذى يدفع لهم .

وقال محمد بن عويس :

– سيدفع التاجر فإن مصر كلها فى حاجة إلى كل حبة بصل وكل قرن فلفل .

وقال عوضين وكأنه يفكر :

– ولكن التاجر الذى يشترى بسعر أعلى سيرفع هو الآخر السعر الذى يبيع به .. ويضج الناس .

وقال محمد بن عويس :

– الناس مهما ضجت فلن تمتنع عن الأكل مهما دفعت .

وهز عوضين رأسه موافقا .. وظلت همسات ابن عويس تتردد فى عقله حتى رفع الأسعار .. ماذا يهمه حتى لو مات الناس ما دام يرفع نفسه وأهل قريته إلى مزيد من الرخاء .

وفرح أهالى القرية وهم يحصلون على أموال أكثر مما كانوا يحصلون عليه قبل رفع الأسعار .

ولكن لم يعد الناس يكتفون .. ولم يعد محمد بن عويس يرضى بما حققه لأهل القرية .. إنه دائما يريد أكثر .. ونفخ فى رأس عوضين العمدة .. لماذا لا تصدر إنتاج الأرض إلى الخارج.. إن الانفتاح معناه التصدير .. وسيصل إليك أضعاف ما يصلك اليوم ..

وقال عوضين وهو يحادث نفسه :

– حرام أن نأخذ خيرات مصر ونرميها خارج مصر .. إن ما فى القرية من قمح وقطن وبصل وفلفل لا يكفى القرية فكيف نرمى به إلى الخارج .. ولكن إنه انفتاح .. إنه تصدير .. وسنفرح وتفرح مصر كلها عندما تصلها العملات الصعبة .. الدولار .. يا أهلا بالدولارات .

وبدأ محمد بن عويس ينفخ ويهمس فى العقول ويتسلل إلى المستحيل حتى استطاع عوضين أن يجد عقودا لتصدير كل ما يخرج من الأرض من خيرات .. وصرخ الناس يريدون أن يأكلوا .. ولكن صراخهم لا يوقف التصدير .. إن الدولارات أقوى من الصراخ .

●●●

وفوجىء محمد بن عويس باثنين من الملائكة يهبطان فوقه.. إنه لم يرهما من قبل فى الجنة .. لا شك أن اختصاصاتهما لم تكن تشمل أهل الجنة .

ورفع الملائكة محمد بن عويس معهما صاعدين به إلى السماء دون أن يقولا له كلمة ..

وصاح محمد بن عويس :

– إلى أين ؟

وقال ملاك :

– إلى النهاية .

وقال محمد بن عويس :

– إنى لم أنته بعد .

وقال الملاك :

– لقد انتهيت وقد حل بك غضب الله .

وقال محمد بن عويس :

– لقد جعلت من أهلى أغنى الناس .

وقال الملاك فى امتعاض :

– إن أهلك ليسوا أهل مصر كلها .

وقال محمد بن عويس وقد بدأ يذبل :

– لقد جعلت من قريتى جنة .

وقال الملاك متأففا :

– إن قريتك ليست كل القرى .. والملائكة لا يكتفون بذاتهم ولا يخدمون بشرا وينسون باقى البشر .. لقد أصبحت أنت شيطانا .

وقال محمد بن عويس كأنه يبكى :

– إن الله هو الذى لبى دعوتى وجعلنى شيطانا .

وقال الملاك ناهرا :

– إن الله أطلعك على ما وهبه للشياطين كاشفا لك خباياهم حتى تنتصر عليهم .. ولكنك ما كدت تكتشف السر حتى

تخليت عن إيمانك .. ونسيت منتـهى تعاليم الله التى جعلت منك ملاكا حـتى استولى عليك الشيطان وأخـذك فى زمرته وجعلك من زمرة الشياطين .

وتلفت محمد بن عويس حوله وهو يرتعش وقال فى هلع :

– إننا نسـيـر فى طريق آخر .. لـيس هذا هو الطريق الذى سرت فيه وأنا فى طريقى إلى الجنة .

وقال الملاك :

– إنك لم تعد مـن أهل الجنة .. لقد غضب الله عـليك وأحالك إلى أهل الجحيم .. والله منتقم جبار ..

وألقى بمحمد بن عويس من فتحات الجحيم وهو يصيح :

– يارب .. يا غفور يا رحيم .. عفوك يا أرحم الراحمين .

رقم الإيداع ٩٩/١٥٤٤٩
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0877 - 6